الفصل الثاني
القرآن والنبوة.

المبحث الأول: النبي محمد(ص)([1]).

إطلالة:

يمثلُ الإسلامُ ديناً مستقلاً عن اليهودية والمسيحية، على الرغم من العلاقات الدينية القوية الرابطة بينه وبين ديانات التوحيد السابقة عليه.

ولزم التنويه إلى أننا لا نبحث في طبيعة الدين أو نشأته أو حتى علاقاته المتداخلة مع ما سبقه من أديان بقدر الاهتمام بالجوانب التي تتعلق بموضوع هذا السفر الأساسي، وهو الجوانب السياسية والدينية للدين بوصفه حاكماً لرعية يتبناها قوم (حكام) في مواجهة آخرين(محكومون).

لدينا قناعات بأن الدين واحد ومصدره واحد، والنص المقدس واحد، وإنما لعبت الاختلافات البشرية في الطرح وتدخل الفقه والتفسيرات، التي أدت في الكثير من الحالات إلى الخروج عن الوحدة الدينية التي هي أقدس المقدسات لرغبات بشرية محضة تتفق مع مصالح ربما مؤقتة وربما مستدامة، والبعض يدرس الأديان للمقارنة أو البحث عن مظاهر التشابه، والذي عليه أغلب العلماء أن مرد التشابه في بعض الكتب المقدسة للأديان الإبراهيمية مناط الدراسة يرجع إلى وحدة الأصل([2]) ، وقد جاء في القرآن آخر النصوص المقدسة تنزيلاً أنه " اللوح المحفوظ" وتنزلت منه الكتب وفقا للتدرج المعروف الذي يناسب البشرية في تطورها المعلوم.([3])

وتأتي أهم القضايا الإيمانية في الدين وهي قضية الوحي على رأس اليقينيات التي لا ينبغي تكذيبها

١- لأسباب إجرائية سأبدأ هذا الفصل بالنبوة ، بالرغم من أن العنوان الذي سألقي عليه هو القرآن والنبوة ، فالقرآن هو من قرر النبوة لمحمد ، غير أن من جاء للناس بالقرآن هو محمد (ص)

٢- خلافاً لمن يقول بالتأثير والتأثر بين اللاحقين والسابقين ، وهو قول يود أن ينسف فكرة استمرار الوحي ودوامه،أو اتصال البشري بالإلهي عبر الملائكة ، لمن وجود ديانة تمتُ للسماء بصلات، وهو ما تحاه أغلب المستشرقين تجاه الإسلام،وسيأتي تأكيد أعلمهم أن محمدا تعلم القرآن أو ابتدعه، وتلك الافتراءات قديمة ومتجددة، وسبق أن حكاها القرآن وفندها (ويعتمدون على التدرج في الحديث عن بني إسرائيل وفق الظروف السياسية بين محمد واليهود)

٣- هناك من الغربيين والشرقيين القدامى من يرى أن وجود التشابه في قصص الأنبياء مرده إلى تأثر النبي محمد في القرآن بالعهد القديم والعهد الجديد ، وهذه قصية قديمة متجددة ما يزالون يرددونها، ويؤكدون أن محمدا استفادها من معلميه كما حكى القرآن" ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشرٌ لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجميٌ وهذا لسانٌ عربيٌ مبين" (النحل/١٠٣) (وقد تبنى منهج التأثر المحمدي بالديانات السابقة(اليهودية والمسيحية) حديثا في الظهور على يد أعلام الغربيين من أمثال أبراهام جايجر ،ريتشارد بيل، وتور أندريه ،وكارل أرنس وشارل كولتر توري ويوسف هوروفيتس،وغيرهم ممن أكدوا على النظرية التي تؤدي إلى التأكيد على أن القرآن الكريم كنص مؤسس للديانة الإسلامية من صنع محمد عليه الصلاة والسلام

أو التشكيك فيها، فإن حدث تشكيك في الوحي انهدم الدين كله.
فالوحي استقبال من مُرسِل مباشرة أو عبر وسيط، أو إصغاء بالروح والقلب لرسالة مباشرة.

وعلى هذا تكون " النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله من دون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى: إما إلقاءً في الروع، أو بتوسط مَلكٍ يتمثل في صورة بشرية ،أو أثناء النوم على حالة الرؤيا، أو غير ذلك من الحالات الروحية التي لا يدركها غير نبي، ويسمى هذا الأسلوب التعليمي المخالف للسنن العادية وحياً"(١).

وقد ذكر علي الصلابي **طرق الوحي** وذكر أنها:

- الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه(ص).
- الإلهام، وهو أن ينفث الملك في روعه من غير أن يراه. كما قال (ص) : " عن روح القدس نفث في روعي ".أي: إن جبريل عليه السلام نفخ في قلبي:" أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب".
- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس: أي مثل صوته في القوة.
- ما أوحاه الله تعالى إليه بلا وساطة ملك. (كحديث الإسراء)
- أنه يرى الملك في صورته التي خُلِقَ عليها.
- أنه (ص) كان يتمثل له الملك رجلاً. (كالحديث المشهور عن الإيمان والإحسان والإسلام).(٢)

الأديان الوضعية(البشرية/خاصة الآسيوية) بصفة عامة ترتكز على صراع بين الآلهة، فهناك آلهة للخير أو الجمال أو النور تقابلها آلهة أخرى هي آلهة الشر والقبح والظلام,,, وهكذا.
أما الديانات السماوية فإن الاختلافات فيها لها نوع آخر مختلف فمثلاً:
في اليهودية: يهوه إله اليهود وحدهم، هم وحدهم الذين تمكنوا من التعرف عليه .
في المسيحية: فإن النظرة للإله خلافية بحسب المنظور لطبيعة عيسى، أهو إله أم مجرد نبي، أم كلمة الله وابن الإله وهكذا. غير أن الأديان السماوية في جوهرها لا تؤمن بتعدد الآلهة وإن كانت اليهودية قد تؤمن بوجود آلهة أخرى لبقية الشعوب، أما هم فلهم إله واحد.
في الإسلام: نجد الأمر واضحاً وجلياً ولا يحتاج إلى أي تدخل، ففي الإسلام لا إله إلا إله واحد له صفات يتفرد بها، وأهم تلك الصفات أنه لا يمكن الإحاطة به ولا يوجد تصور كامل وشامل ومحيط به، فهو لا يحويه مكان ولا زمان، ولا يعجزه شيء في الكون كله.

١- محمد فريد وجدي السيرة النبوية، صـ٤٦
٢- د .علي محمد الصلابي، السيرة النبوية، مؤسسة اقرأ، صـ٧٥

في بعض الديانات نجد أن الله يواجه الشيطان وكأنهما خصمان، أما في الإسلام فإن الشيطان عدو للإنسان وهناك آيات كثيرة تؤيد هذا المعنى من بينها قوله تعالى:" وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *(البقرة:٣٦-٣٨)

وواضح من هذا الطرح أن الله سلطة عليا، وأن الشيطان عدو للإنسان .

وفي بعض الآيات التي قد يحاجّ بها البعض نجد أن الله تعالى يقف إزاء الشيطان، ونفهم منها أن الشيطان عدو للإنسان من خلال أوامر يوجهها للإنسان تبعده عن طريق الله تعالى ومن ذلك قوله تعالى:" الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقر: ٢٦٨)(وسوف نتحدث طويلاً في مبحث القرآن الكريم عن بعض تلك المقاصد والخطابات.

يؤكد الفلاسفة وكل أصحاب الفكر الحر المستنير على أن الإنسان ليصبح خليفة لله في الأرض، ويصير مسئولاً عن إعمارها فإنه يتكون من ثلاثة مكونات رئيسة وهي:

-العقل.
-الذاكرة.
-الخيال.

وسنبحث كيف اعتمد الطرح الديني الإسلامي على الثلاثة مكونات وكيف استبعد بعض الحكام هذه المكونات وطمسوها عامدين؛ لإخراج مكونات أخرى تتمثل في الطاعة القائمة على الطمع، والمنبعثة من الحقد لتأسيس فرق دينية تتخذ من الخطاب القرآني مصدرا لتأويل كافة طموحاتها.

ومن ثمَّ يمكن القول بأن اليهودية كدين لها أنبياء كثيرون، وعندهم كتاب التوراة(خمسة أسفار)، وأسفار الرسل التي تبلغ (٣٤ سفرا). والمسيحية كديانة لها نبي واحد ويؤمنون بأنبياء بني إسرائيل على درجات ،ولهم كتاب مقدس وهو الإنجيل(الأناجيل هي: متى- مرقس- لوقا – يوحنا) ويوجد غيرها ولكنه لا يدخل ضمن الاعتراف الكنسي به، وعدد الأسفار الأخرى تبلغ ٢٣ سفراً.([1])

أما الدين الإسلامي له نبي واحد وهو الخاتم والذي جاء بالرسالة من عند الله عبر وسيط وهو

1- يلاحظ أن القرآن الكريم قد تطرق كثيرا لذكر التوراة ، وأكد أن بها هدى ونوراً وأنها مُنزّلة من عند الله تعالى، وقد ذكر الله التوراة مقترنة بالإنجيل في 12 موضعاً وتفردت التوراة في أربعة مواضع ،انظر(آل عمران 3/48/50/65، المائدة 43/44/46/66/68/110، الأعراف 157، التوبة 111، الفتح: 29، الصف 6، الجمعة 5) كما جاء ذكر الكتاب كثيرا في القرآن الكريم مقصودا به التوراة والإنجيل انظر على سبيل المثال – فقط- (البقرة 44/53/78/79/85/113/121/144) وقد ورد ذكر الكتاب في القرآن فوق 132 يقصد به التوراة والإنجيل أو أهل الكتاب (اليهود والنصارى)

جبريل وارتقى بالمعراج إلى السدرة التي لا ينتهي إليها أحد من الخلق، ويؤمن الإسلام بكل الأنبياء السابقين ويصنفهم، فمنهم الرسل ومنهم الأنبياء، ومنهم أولو العزم، ومنهم منْ ذكره الله ومنهم منْ لم يذكرهم ، قال القرآن الكريم:" وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" (النساء:١٦٤) ويتحدث عن الرسل قائلاً:" آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"(البقرة:٢٨٥(

كان لابد من هذا التقديم لتقرير شيئ من الفروق بين الدين اليهودي والنصراني والإسلامي من حيث الارتباط بالنبوة والكتب المقدسة، واللافت أن الإسلام يؤمن بالسابقين وهم لا يؤمنون به، ويعللون ذلك لوجود نصوص في التوراة تمنعهم من الإيمان به، والأكيد أنهم لم يؤمنوا به لأسباب عرقية إثنية ستأتي بعد قليل.

والنبوة مرتبطة في – كينونتها وكافة الأحاديث حولها – بشخص النبي محمد (ص) فهو الذي صار نبياً، وجاهد مشركي ووثني قريش؛ ليخرجهم من عبادة الأوثان والأصنام إلى التوحيد، ولاقى العنت والعذاب والمشقة، ثم فرّ من مكة لما ضعفت الشوكة فيها، ومات النصيران، إلى يثرب التي دخل أغلب أهلها في الإسلام.

وتهتم أغلب الكتب التي أرخت لحياة النبي وسيرته بطبيعة الشخصية قبل البعثة، أكدت أغلب السير أن نفسية الرسول تباينت عن بقية أهل عصره (زماناً ومكاناً) من ذلك ما ذهب إليه العلامة محمد فريد وجدي حين وصفها قائلاً: " إن هذه النفس الحائرة الثائرة، التي لم تجد في العالم المحسوس ما تعول عليه، وتركن إليه، فأخذت تلتمس بِلال غلتها، وسكن جيشانها، في عزلة الكهوف وظلمة المغاور، وهي محرومة من ملاذ المطاعم والمشارب، ومتع المكاسب والمآرب، لهي نفس لم تطبع على غرار هذه النفوس العادية، ولا تشغلها من المطامع والمطامح ما يشغلها في محاولاتها اليومية".([1])

فبعد أن فرغ محمد(ص) من البحث عن المال، والعمل، والزواج، وأنجبت زوجه البنين والبنات([2])

١- محمد فريد وجدي السيرة النبوية، صـ٨٨ والمتلمس لذلك الأوصاف وما يشبهها يجد أنها تقترب من أوصاف اللامنتمي كما راها كولن ولسون في كاباته عن الشخص اللامنتمي، فهل كان الرسول لا منتميا لعصره؟ الظن الراجح أنه كان ابن عصره في كل مظاهره الثقافية والاجتماعية ولكنه عبّر فقط في المظاهر الدينية الوثنية ، لما بسط الله عليه من وقاية من الأدران والاوساخ، وقبل إن سبب ذلك حادثة شق الصدر في الصغر إبان تنشئته في ديار بني سعد وقد أنكرها الكثيرون من المحللين المعاصرين، غير أنه ربما صُرف عن الاعوجاج وطُبع على الفطرة المستقيمة لا اعوجاج لها

٢- أنجبت خديجة للرسول القاسم ، وبه يكنى، وعبد الله ومات صغيرين، ثم أنجبت زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة تزوجت زينب الربيع بن العاص، وتزوجت رقية وأم كلثوم عثمان بن عفان ، وتزوجت فاطمة علياً بن أبي طالب ، وهي الوحيدة التي بقي نسلها من الرسول في الحسن والحسين وأم كلثوم التي حرص عمر بن الخطاب(- وهو في سن جدها آنذ - على الزواج منها) وقد أعقب الحسن والحسين ذرية مازالت موجودة للبوم ، وتسمى بالسادة الأشراف، منتشرون في جميع أرجاء المعمورة

طفق يبحث عن الإشباع الروحي، ولا يوجد لدينا ما يؤكد أو ينفي أو يبرر الخلوات، وهل كانت للتحنث أو للتعبد أو للتفكر أو للبعد عن المراذل والدنس، أم كانت لجذبة إلهية طاغية لا سبيل للفكاك منها، وإلا فما الداعي لرجل في سن الفتوة والقوة (٤٠ سنة) أن يخلو في غار مظلم مقفر ومخيف وتحيط به المخاوف من كل مكان ما لم تكن نفسه مشبعة بأمن وأمان من نوع خفي عن الأعين، ولا أظن أن الرغبة الجنسية العارمة التي تصيب الرجال في تلك السن وعدم قدرة خديجة على توافر ما يريده جعله يتعبد، فالأمر لا يمكن أن يكون مرده هكذا، بل هناك سر خفي، أو ضامر ويصعب استنباطه ما لم نجد الخبر في الكتب.(١)

ونرى أن أمر محمد(ص) لم يعد قاصراً عليه وحده بعد إعلامه بأمر النبوة، بل الأمر سيعدو خارجاً عن نطاقه، ومن ثمّ تواجهه مهمة قد ينجح فيها أو لا ينجح، فقد كان دوره أخطر وأعظم في نشر الدين الحق وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام في الديانة المسيحية، إذ جاء عيسى لقوم يؤمنون بالرسل وتترى فيهم، ولم يكن خارجًا عن المقدسات عندهم، بل جاء لمجرد التقويم (٢). أما الرسول فهو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية.كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده.وفي القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم.

كل هذا كان يلقي بمسئولية جسيمة على كاهله، ومن هنا يمكننا فهم الآيات الأولى التي تنزلت عليه مثل :(المدثر:١-٧) وكذا(المزمل:١-١٠) وغيرها كثير، وقد كُلف في بدء الدعوة بالإنذار – كما سبق التنويه- ولم يُكلف بالتبشير، إذ أن التبشير يأتي عقب فعل الخيرات، وترك الوثنية أما الإنذار فهو تقرير حال.

كان النبي قد اعتاد الخلوة في الغار، فلما وقعت له تلك الواقعة الفاصلة في تاريخ الأرض، عاد إلى بيته فراع خديجة ما رأته من هيامه وصمته، وكان يبدو في بعض الأحيان غير شاعر بما حوله مغشياً عليه خفي النَّفس، ثم يظهر نائماً منتظم التنفس هادئاً ثم خافق القلب، فيرى في منامه رجلاً صافاً

١- وساعد السيرات لهذا البحث من جهات كثيرة، فمثلاً يقول إميل درمنجم " أخذ محمد يبحث كما رأى رُهّاد النصارى وناسكهم يصنعون، فكان ينقطع عن الناس في شهر رمضان على الخصوص، وذلك في غار حراء القريب من مكة، وكان يُؤتى إليه في أثناء عزلته بالزاد ،وكان يقضي طويل الأيام في ذلك الغار متأملاً عابداً ، وما كان له أن يستغني عن العزلة، شأن أقوياء النفوس وذوي الحدّ من الرجال، ولم ينكّ محمد عن الانقطاع حتى بعد أن أصبح رئيس دولة وصارت أمور السياسة والحرب تشغل باله لما في الانقطاع من مصدر القوة والاتزان والحكمة التي لا يصب معيه، وكان محمد يطالب الناس باحترام أوقات اعتكافه ، ثم أمر القرآن المؤمنين بألا يدخلوا بيوته إلا أن يؤذن لهم ، وبأن يتشروا إذا طعموا فيها " إميل درمنجم حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، صـ٥٠ وهو يشير إلى الآيات من سورة الأحزاب /٥٣، وسورة الحجرات

٢- ويرى مايكل هارت أن دور عيسى كان قاصراً على المعالم الأخلاقية فقط وربط بالقديس بولس القيام بمهمة التشريع ، يقول وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق في المسيحية غير أن القديس بولس هو الذي أرسى أصول الشريعة المسيحية ، وهو أيضاً المسئول عن كثابة الكثير مما جاء في كتب العهد الجديد "مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد، ترجمة أنيس منصور، الزهراء للإعلام العربي، ط٦، ١٩٨٥، ص ١٧ ، كما يرى أن " محمد هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي صـ١٣

قدميه في أفق السماء يدنو منه باسطاً ذراعيه ليقبض عليه.. فيصحو محمد مذعوراً وهو عرقان ،فتمسح خديجة عرق جبينه وتسأله عما بدا له بصوت خافت هادئ يَنمُّ على الإشفاق، فلا ترى منه سوى السكوت أو الإعراض عن أسئلتها أو إجابتها بما لم تفهمه من الكلام، وتلك قد تكون حال مبالغ فيها ، غير أنها تتناسب مع طبيعة آيات تلك المرحلة، فالموقف جد خطير، فهو غير المعدود من الزعماء أو الكبراء، يكلف أن يتصدى للكبار وما يُكبرونه، وللأغنياء وما يغتنون بسببه، ومن ثمّ أصبح محمد(ص) بعد انقضاء " ستة أشهر نحيفاً منهوكَ الجسم غير منتظم الخُطا أشعث الشعر واللحية غريب النظرات (غير طبيعي هذا الوصف) ، فأخذ يقنط، وهل أصابه مسٌّ فأضحى أُلعوبة بأيدي قوى الشر الكريهة؟ وهل صار شاعراً يستوحي الجنَّ بما أصبح يجري على لسانه من الكلام الموزون؟ أخذ محمد ييئس لما يحمله من مقت الشعراء الذين هم أُلعوبة الأرواح والذين يقولون ما لا يفعلون".(١)

قال محمد لخديجة الكريمة الخلق:" أخشى أن يكون بي جنون "
فقالت:" كلا يا ابن العم، ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وإن خلقك لكريم، فلا يكون للشيطان عليك سبيل.

وقد أثر الصيام والسهر في صحة محمد(ص)، الذي كان قد اعتاد الأكل الوفير، والحركة والحياة الطليقة، فكان يرى في أثناء نومه الخفيف رؤى غريبة. كان يتذكرها جيدا حينما يصحو، وكان يقصها على زوجه، وكثيراً ما فقد وعيه، وسقط على الأرض كأنه قد فارق الحياة، وكان يتشنج أحياناً، وهذه الحالات هي التي أدت إلى الظن بأن محمداً يعاني صرعاً، وباب المجادلة مفتوح في هذا الظن، فالأكثرية تجزم أن محمداً كان مصاباً بالصرع، وهناك كثيرون يؤكدون أن هذه الإغماءات كانت حقيقية ليتثبت من أن هناك ما هو أفضل وأعلى من تعاليم الكعبة.

وحقيقة ما كان ينتاب محمداً، حسب ما روى عن أخبار عصره، وما جاء على لسان خديجة، هو أنه قبل أن يبلغ الأربعين، ظهر له الوحي لأول مرة، وكان في التاسعة والثلاثين(أو فوق الأربعين)، فكان من ذلك الوقت إلى أن انقطع الوحي بموته، إذا جاءه الوحي ثقل نفسه، واهتز جسمه، وتفصد عرقه وتبلل به جبهته، حتى في أقصى حالات البرودة، وكان ينام أحياناً مدة طويلة وعيناه مقفلتان وهو يتأوه.

"وكان محمد يعلم أن هذه النوبات تنتابه، فكان شديد الحس من ناحيتها، فلم يره وقد انتابته

١- انظر تلك الأوصاف للكاتب إميل درمنجم ، ترجمة عادل زعيتر ، صـ٥٧ وهي أوصاف لا نرضاها ، وإن كنا لا نرى بأساً من ذكرها للتأكيد على صعوبة الموقف فحسب

هذه الحالات إلا خديجة، وأزواجه اللائي أعقبنها، وما كان محمد ليتفوه بأشياء ذات أهمية خلال هذه النوبات، وقد أمليت كل كلمة من كلمات القرآن عقب صفاء ذهنه من أثر الوحي. ويؤكد الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار لامعة، وأنه لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتمتع بها محمد، حتى قبل مماته بأسبوع واحد، وليس هناك ما يمنع من القول إن هذه النوبات إن هي إلا نتيجة للملاريا أو أي حمى أخرى، وربما كانت النتيجة المباشرة لإحلال الوحي فيه.

وسواء أكان صرعاً أم ملاريا أم غيبوبة روحية، فلن يؤثر ذلك في الأمر شيئاً، على الرغم من كل ما قيل في هذا الموضوع. فما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً.(١)

عاد الغمُّ إلى محمد(ص)، فاحمرَّ وجهه واصفرَّ، وصار يسمع دويًا في أذنيه وشخص بصره واختلف وضعه وقال: " ها هو قد جاءني"(الترقب الشديد لحدث مزلزل قد يفجر الهموم في الرأس، ويزيل الوقار ويحل محله التوتر البادي على الملامح كلها)

لم يكن ذلك في المنام بعد أن عاد محمد لا ينام ولا يحلم، ولم ينفك ذلك الشخص العجيب عن الاقتراب منه.

هنالك عنَّ لخديجة أمر، فقد تحسَّرت وألقت خمارها على محمد وهو جالس في حجرها:
لم يعارض محمد في ذلك، فكان كالولد الجاثم في حضن أمه احتماءً بها من كل عدوان في الدنيا، ثم قالت له: هل تراه؟
فقال محمد: لا.
فقالت خديجة: يا ابن العم اثبت وأبشر، فوالله إنه لملك وما هو بشيطان.
وذلك لأن خديجة رأت أن الملك لا يرى الرأس المكشوف من المرأة بخلاف الجني.
جاء شهر رمضان فخرج محمد إلى حراء كما كان يخرج لجواره، حتى إذا استدار الهلال وزاد نوره، وكان محمد نائماً أتاه ذلك الشخص العجيب بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: "اقرأ"
فقال محمد: " ما أنا بقارئ" فَغَتَّهُ حتى ظن أنه الموت ثم أرسله فقال: اقرأ"
فقال محمد: " ما أنا بقارئ" فَغَتَّهُ مرة أخرى حتى ظن أنه الموت ثم أرسله فقال: اقرأ"
فقال محمد: "ماذا أقرأ ؟"

١- ر.ف بودلي الرسول ،حياة محمد ، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر ١٩٨٩م صـ٥٠

فقال : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"
فقرأ محمد ذلك فشعر بأن النور صُبَّ في نفسه صباً، وقد تمثل له ذلك النمط وهو الأمي فعلم ما هو مكتوب فيه وانجلى له الحق.

يصف إميل درمنجم المرحلة التالية لتيقن النبي من أنه مكلف ومرسل لقومه قائلاً: "تشجع محمد فأخذ يعيب على العرب عبادتهم الأصنام ويُشَنِّعُ هُبَل ومناة واللات والعزى، وصار يسخر من الأنصاب التي لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع والتي ليست غير حجارة يُضرِّجها العرب بالدم والتي لا ينشب العرب أن يرموها إذا ما وجدوا خيرا منها، وشرع يسخر من الجمرات التي لم تكن غير جثوة من حصا، وصار يهزأ بعبادة بني حنيفة للأوثان المصنعة من الحلوى والتي كانوا يأكلونها إذا ما جاعوا، وأصبح يذم الزجر والعيافة، وأضحى يُنحى باللائمة على انحلال الأخلاق وقسوة القلوب وبخل الأغنياء وأكل الربا."(١) غير أنه من الضرورة بمكان التنبيه على أن محمدا(ص) لم يتشجع على فعل ذلك إلا بعد مضي عدة سنوات من بداية الدعوة كان قد آمن معه فيها عبد الله بن أبي قحافة (أبو بكر الصديق) وعثمان بن عفان، والزبير بن العاوم، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، ومصعب بن عمير ومجموعة أخرى من خيرة قريش وأغنيائها، ثم راح يجهر بالدعوة، متنقلاً من أسلوب التقريع إلى أسلوب الجزم وتحديد الهدف والمرمى فذم الآلهة وعاب ما هم عليه، حتى اشتهر أمره وصار الكل يعرف هذا الصابئ بما يعبد أهل مكة، وقد كان في السابق ألا مشاحة لأحد يخرج عن عبادة قريش، فقد خرج سابقون ولم يتعرض لهم أحد بالإيذاء أو الطرد؛ وفي المقابل فإن أحدا ممن خرج على دينهم (كورقة بن نوفل المتنصر) لم يعب على قريش عبادتها، ولم يكن أحدهم مكلفاً بتبليغ شيئ لقريش، أما محمد (ص) فأمره مختلف.

استتبع ذلك(عيب الآلهة والسخرية من قريش) أن تذمر القوم وسخطوا لما رأوه في ذلك من تقويض للنظام الاجتماعي ومن مقاطعة الأعراب لتجارة مكة ومن تهديد لمصالح مكة ولما ظنوه من طمع محمد في الرياسة والسلطان، وهذا إلى كره العرب لدين يستند في صحته إلى أجنبي الأديان كاليهودية والنصرانية، ويستشهد صاحبه على صدقه باليهود والنصارى من أهل الكتاب، وهل يقتدي بعثمان بن الحويرث الذي أراد أن يُخضع مكة لحماية الروم وأن يكون عامل قيصر عليها؟

والعرب لقاح لا ولاية لأحد عليها وإن كان من أبنائها، فهذه طبيعتهم، يحبون الحياة بعيدا عن مظاهر الدولة والتجمع تحت راية واحدة، فالعربي يثور لأتفه الأسباب والقتل يكون لسبب أو لغير

١- درمنجم حياة محمد، صـ٥٨

سبب، لكل هذا لم يطيقوا دعوته، والظن الراجح عندي – بعد مطالعات- أنهم لم يدرسوا دعوته ولم

يتفكروا فيها جيدا، بل نظروا للأمر نظرة سياسية فحسب، وأن تلك الدعوة ستغير من أوضاعهم، وتزحزح الموروث الثقافي والديني وهم قوم يحفظون الأنساب ويفاخرون بها، ولابد أنهم سيقاتلون من يهاجم السابقين من آبائهم، ومن هنا كانت أهم اعتراضاتهم على ما يأتي:

أولاً: اعتراضهم على الوحدانية. (أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟)

ثانياً: كفرهم بالآخرة. (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)

ثالثاً: اعتراضهم على شخص الرسول. (لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم!)

رابعاً: موقفهم من القرآن، لم يصدقوا أنه منزل من الله واعتبروه ضرباً من الشعر.([1])

وقد كانوا في موقف لم يجابهه الآباء، ولا توجد عندهم خبرة سالفة بمثله، ولا اهتموا بأن يسألوا أحدا إلا عن طرق تكذيبه، فسألوا اليهود، فلم تلتفت اليهود (في يثرب) للأمر بعين الاعتبار، فراحوا يساعدونهم، ويطلبون أن يوجهوا إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي أو من يوحى إليه، فكان نزول سورة الكهف، وكان ما فيها من اضطراب الحركة الدعوية في تلك الفترة الحرجة من المواجهة الفكرية، وفيها دلالة على أنهم راحوا يفكرون ويفندون أقواله وأنهم حكموا في أمره وأمرهم العقول، وبات وشيكاً أمامه أنهم على وشك الإيمان له، من هنا تسرع قائلاً: إن إجابة تلك الأسئلة ستأتيه غدا، فتأخر الوحي على النحو المشهور ولما نزل عاتبه ربه قائلاً: " وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا "(الكهف:٢٣-٢٤)

ثم رغم ذلك لم يؤمنوا به ولا بدعوته وقالوا قولاً كثيراً حكى القرآن بعضه، فقد قالوا: ألم يجد ربك غيرك يرسله، وقالوا: أيأتي الوحي محمداً ويذر العظماء، وقالوا: لست مرسلاً، وقالوا: إن الله لا يرسل البشر.. الخ([2]) ما قالوه وكانوا يقولون إن يتيم أبي طالب يدعي أمراً لم يسبقه إليه أحد، وهم يعرفون شرف النبوة وإطلاقهم عليه اتهامات الجنون والسحر والكهانة والشعر – كما مرَّ في الفصل الأول – لم تكن من باب المواجهة، بل كانت من باب العجز؛ فقد جاء محمد بالوحي والكتاب وفيه أخبار الأمم، أو بعض الأخبار عن الأمم، وجاء بدعوة صريحة للتوحيد وترك عبادة الأوثان والأصنام، وتغيير الكثير من العادات الخلقية السيئة، مثل بعض أنواع من الزواج ووأد البنات وغير ذلك - ولكن هذا كله في مرحلة متأخرة، فلم تكن قريش وأغلب المدن تقوم بوأد البنات، بل كان يقوم بهذا الأعراب قليلو الثقافة والمدنية، وتروي لنا الكتب أنهم لعجزهم راحوا يلتمسون مخرجاً من هذا المأزق؛ لمحمد

١- د الصلابي السيرة النبوية، صـ٦٥

٢- وقد حكى القرآن جميع ما ادعوه وقذفه ، ومن ذلك انظر(الإسراء ٩٤، الزخرف ٣٢ وغيرها كثير)

دعوة ومعه كتاب، وعنده شواهد، وكل هذا يقوِّض ما هم فيه، **فما المخرج؟**

تقول السير: إن الوليد بن المغيرة المخزومي اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم(موسم الحج)، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله، ما هو بكاهن؛ لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر؛ لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر؛ لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم؛ فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول؟

قال: إن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يُفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك.([1])

إن صح هذا الحديث - وهو مشهور متواتر – فلا يدل على أنهم رموه بما يعرفون كذبهم فيه،

١- ينظر مونتجمري وات إلى الأمور نظرة كلية في موضوع المعارضة ويتلي بذلوه فيه قائلاً " لقد كان الزعم الذي أشاعه مناوئو محمد تفسيرا لظاهرة الوحي هي أن محمدا مجنون ،أو بتعبير آخر تملكه جن ، لكنهم اقترضوا أيضا أنه كاهن ، ينمق الكلام ، كما اقترضوا أنه ساحر أو ساحر شاعر

فالذين زعموا هذه المزاعم لم ينكروا أن تجربة محمد مع الوحي لها بمعنى أو آخر سبب فوقي (عُلوي أو فوق طبيعي) لكنهم لم يرجعوا هذا السبب لله سبحانه وتعالى ، وإنما أرجعوه إما لموجود شيطاني أو قوة عليا أدنى درجة من الله سبحانه وتعالى المهيمن على الكون ،وحتى تأكيدهم على أن محمدا شاعر يشير إلى قوة علوية فقد كانت الفكرة لدى معاصريه أن للشاعر روحا تملكه أو جنا يتلبسه ،ونحن نجد بالفعل عبارة شاعر مجنون (الصافات ٣٥) هذه التأكيدات عن أصل الوحي (كما يراه أعداء محمد) كان لها تبايعاتها وهي ألا ينظروا للتحذيرات التي جاءهم بها نظرة جدية

فليس من الضروري أن تكون تحذيرات حقيقية ،فإذا كانت مصادر الوحي كما يراها المشركون في ما ذكرناه آنفا ،فهذه المصادر إما أن تكون شريرة حاقدة ، أو أن تكون قاصرة المعلومات ،هذه الادعاءات قد يكون الهدف منها هو تكذيب محمد فحسب وتشويه صورته ، وليس بقصد تحويل من آمنوا به إلى مصدقين لهم ، على أية حال فقد كان مناوئو محمد يعتقدون بشكل عام أن تصوراتهم صحيحة

والمحاولة الثانية التي قام بها مناوئو محمد فيما يتعلق بالوحي هو تأكيدهم على أنه إنتاج بشري ،أي أن محمدا قد وضعه بنفسه أو ساعده على وضعه بشر آخرون (الفرقان ٥،السجدة ٢، النحل ١٠٢)

وإذا كانت هذه الآيات راجعة إلى الحقبة المدنية ، فيمكن للمرء ببساطة أن يتخيل أن مثل هذه المهمة(مهمة الآخرين الذين زعم المشركون مساعدتهم محمدا في وضع القرآن قد قام بها اليهود أو أن المقصود هم يهود المدينة) لكن هذه التهمة تقليدياً قد ظهرت أثناء الحقبة المكية ، وظهرت أسماء كانت هناك اقترحت من المشركين بأنهم ساعدوا محمدا في وضع القرآن الكريم

فهذه المزاعم التي مؤداها أن محمدا قد خرج برسالته لناس بعد أن تلقى دعماً بشرياً – مثل هذا المزعم بطبيعة الحال يختلف عن تهمة أخرى وردت في القرآن الكريم عدة مرات و هو أن هذا الوحي (القرآن) ما هو إلا كلام بشر ، وقد وردت هذه التهمة في سياق الحديث عن السحر(المدثر ٢٤، الأنبياء ٣، ص ٣) فالكلام المسجوع شبيه في رأي أعداء محمد بكلام السحرة والمتعوذين الذين يُضمنون أسجاعهم معان غامضة ، لكن هذا القول يفترض أيضاً أن محمداً يتلقى معلوماته من الجن

أما النقد الثالث ، فمفاده أن محمداً لم تكن شخصيته من النوع الذي يأتيه الوحي، فلم يكن – في رأيهم – مهماً بما فيه الكفاية (المؤمنون 30) بدليل أنه لما أخبر بأنه نبي تعرض ببساطة للسحرية (الفرقان 43)

وقصص الأنبياء التي أوردها محمد تعكس ظروف محمد

والتركيز على عدم أهمية محمد لابد أن يصرفه المرء نحو الحقبة المكية ، أما في المدينة فقد ارتفع شأنه ، والإشارة إلى أتباع الأنبياء الآخرين كعبد أو قراء(الشعراء 111) – (المزمل 40) ربما تعني أيضا السحرية من محمد لكن هذه النقطة لا يمكن مهاجمتها

فقد فند الرجل أقوالهم وسفَّه حلومهم، وعاب عليهم ما يقولون ثم لما طلبوا منه النصح لم يجد إلا الانسياق وراءهم من جديد، ألا يدل ذلك أبلغ دلالة على العجز والخطل؟ بلى.. فهم يواجهون أمرًا شديد الوعورة، رجل عنده أفكار ولديه معارف تأتيه من السماء، ومعه إرادة وتصميم، وله تاريخ لا يمكن الطعن فيه، ولا يريد بما جاء به المال أو السلطان أو النساء أو الملك، فماذا يكون؟ وكيف يختلف عنهم هكذا، ثم إن أمره سيؤول إليه به كل الشرف. ولعلهم أحسوا أنه يريد كل هذا معاً، فبالنبوة سيحظى بكل شيء في وقت واحد.

ومن ثم جهدوا أنفسهم أن يصرفوا الناس عنه، وبلغ أشراف قريش من الحرص على عدم ترك إنسان يصبأ ما صاروا معه يراقبون محمدًا مراقبة وثيقة، ومن هؤلاء الأخنس بن شريق الذي أثرت فيه تلاوة محمد للقرآن ليلاً وفي أبي سفيان وأبي جهل، فذهب إلى أبي جهل في بيته فسأله: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعنا من محمد؟"
فكان جواب أبي جهل: ماذا سمعنا؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

وتتضح هنا العصبية القبلية، المتحكمة في الحاضر والمستقبل، فلم ينظر هؤلاء إلى الأمر نظرة الحاضر وما سيؤول إليه في المستقبل، بل نظروا إليه نظرة الماضي، فهم بإيمانهم له سيغدرون بماضي الآباء التليد، ويضيعون الشرف القويم الذي تركه الآباء، لذا حرصوا على آلا يؤمنوا وإن كانوا يرون فيه الحق كل الحق، فما معنى عبادة إله يصنعونه من عجوى وعندما يجوعون يأكلونه؟ وما معنى أن يكون هناك ألف إله أو عشرة أو حتى إلهين فقط؟

لقد قالوا:" مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى "(الزمر:٣) وهم يعلمون أنهم مخطئون في ذلك، ولكنهم كانوا صادقين في أن تلك الآلهة لا تنفع ولا تضر، بل زعموا أنها مجرد وسيلة للتقرب من الله، وهي تشبه ما عليه بعض الناس اليوم؛ إذ اتخذوا من بعض الأمور (الأوصياء – الأئمة – الأولياء... الخ) ما يقربهم إلى الله زلفى.

ولما كان الجهل رحم بين أهله كانوا إذا جلس محمد(ص) وقصَّ من أنباء الرسل (بحسب القصص القرآني)، انبرى له النضر بن الحارث من قريش لإبطال تأثير كلامه فيُحدِّثهم بما تعلمه في الحيرة من أحاديث ملوك فارس ورستم واسفنديار التي اتخذها الفردوسي موضوعاً لديوانه "شاهنامه" بعد

ثلاثة قرون، ويقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني، ما حديث محمد إلا أساطير الأولين اكتتبها كما أكتتبها"([1])

والواقع أن المستهزئين الدهريين والأشرار الطاغين هم الذين كانوا يقاومون النبي ويقاهرونه على الخصوص، وأن في تاريخ الرسول معضلات معقدة في الغالب، وأنه لا يسهل في كل وقت تمييز الحق من الباطل والخير من الشر في أمرهم، فأنت إذا ما نظرت إلى خصوم النبي وجدت منهم وطنيين مخلصين أعمى تعصبهم الوطني بصائرهم فكانوا مشفقين على استقلال قومهم السياسي والروحي(عمر بن الخطاب فيما يحكيه الدكتور محمد حسين هيكل في حياة الفاروق)، ووجدت منهم من كانوا يخشون مناهضة القبائل المجاورة عند ترك الآلهة، ووجدت منهم من كانوا يخافون أن يكون النبي ساعياً إلى نيل السلطة الزمنية، وقد نالها بعد زمن بفعل مناهضتهم له وما اقتضاه سير الأمور ومنطق الحوادث، ووجدت منهم محافظين أوفياء وأشرافاً كأبي طالب الذي كان ،مع حمايته ابن أخيه للعصبية والكرامة غير راضٍ عما دعا إليه من تحطيم الأصنام وعيب دين الآباء.

ولأن أمر محمد(ص) لم يعد سهلاً، وصار له أتباع يتبعون تعاليمه وله أهل يناصرونه فقد مشى جماعة من قريش إلى أبي طالب بن عبد المطلب عم النبي([2])، وقالوا له:" يا أبا طالب! إن لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد طلبنا إليك أن تنهي ابن أخيك عنا فلم تنهه، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، فإن لم تكفه عنا نازلناه وإياك، حتى يهلك أحد الفريقين.

فلما سمع أبو طالب ما قالوه عظم عليه مخالفة قومه وعداوتهم، ولكنه لم يطب نفسه بخذلان ابن أخيه، وتعريضه لوحشيتهم، فرأى أن يكلمه في هذا الأمر فقال له:"يا ابن أخي! إن قومك جاءوني فقالوا لي كيت وكيت، فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.
فأجابه النبي بقوله:" يا عم: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أنزل عن هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته " ثم بكى وقام.
فلما ولى ناداه أبو طالب، فأقبل إليه فقال له:" اذهب يا ابن أخي وقل ما أحببت والله لا أسلمك إليهم".

١- لم يكن محمد (ص) قادراً على أن يثبت لهم أن ما يرويه من قصص الأنبياء وقع حقيقة ، وهم لم يجابهوه بالمنهج العلمي ولا بالدراسات الحديثة التي يريد بعض أصحابها زحزحة الثقة في بقية القصّ القرآني ، والقرآن لا يحكي تاريخاً وإنما يهمه أن يرسم ملامح عامة وأنه بعد أن قصّ بعض أخبار الرسل قال " تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (البقرة ١٣٤/ ونفس الآية ١٤١) للتأكيد على أن المقصود هو العبرة والعظة لا مجمل الأحداث ولا تفاصيلها، وقولهم أساطير الأولين ورد في القرآن الكريم كثيرا ولعله أورد بعض الآيات بذات الألفاظ والعبارات انظر(الأنعام ٢٥، الأنفال ٣١ تماثل مع النمل ٦٨، والنحل ٢٤، والمؤمنون ٨٣، الفرقان ٥، والأحقاف ١٧، والقلم ١٥ تماثل مع المطففين ١٣)

٢- الغالب أن ذلك كان بعد موضوع المقاطعة والحصار في شعب أبي طالب، حيث انضم بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا معه، خرج من بني هاشم أبو لهب ،عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش وظاهرهم ،ابن هشام السيرة النبوية (٣/٢) وقد مرّ الحديث عن صنوف الأذى التي نالت النبي وصحبه حتى هجروا مكة قرارا ولحقت بهم قريش لردهم وفشلوا في ذلك، ثم كان من حديث الغرانيق العلا ، وغير ذلك مما لا مبرر إليه من التفاصيل

قل ما أحببت أنت ولم ينسب القول لربه، فلم يقل له قل عن ربك ما يخبرك به، فلعله حتى هذا الحين كان يسانده عصبية وأنه رقّ له عندما استعبر، وكان الأمر صعباً، ولم يتجاوز الأمر قريشاً حتى ذاك الحين، واللافت للنظر في هذا القصص أن الرسول واجه من أهله ما يواجه من غيرهم، غير أن أهله لم يسلموا للسبب المضاد للسبب الذي كفر به آخرون، وأقصد مقالة عمرو بن هشام السالفة الذكر، فلما كان عدم تصديق المخزوميين والأمويين والزهريين وغيرهم من القرشيين بسبب ما تحوزه بنو هاشم من شرف بالنبوة، فلِمَ لم تؤمن به بنو هاشم، وقد علمنا أن حمزة أسلم لا لعصبية وجاء إسلامه متأخرا، وكذا ناصبه عمه أأبو لهب العداء وردّ إليه بناته في بداية الدعوة، انضم إلى قريش في المقاطعة، ولم يؤمن له أبو طالب ولو سرا؟

هذا كله يفتح أمامنا طرقا وعرة من التفكير، إذ لو كان الكفر عصبية لكان الإيمان عصبية، ولكنهم اجتمعوا (كل العصبيات) على أسباب واحدة للكفر بالدعوة ونظرتهم إليها على أنها بدعة من الرسل، ألا وهي تأكيد محمد (ص) على ما يأتي:

- أنهم ليسوا على شيء.

- أن الآباء في النار؛ لأنهم ماتوا مشركين (حتى والده ووالدته)([1]) وتلك كانت القاصمة لهم، فلم يكن أبو طالب (بمعايير ذلك الوقت) ليذر دين عبد المطلب ليتبع دين ابن أخيه الذي يخبره بأن عبد المطلب في النار.

- التحول المتوقع في كافة المناحي: السياسية والاقتصادية والاجتماعية وثقافية، وفتح أبواب جديدة للعلوم ومناصبة الأمم الأخرى العداء .

- إيمان العرب بحقيقة وضعهم وأنهم ليسوا ندًا للأمم التي قالت كان فيها أنبياء وعندهم كتب سماوية من عند الله تعالى، ومغالبة واقعهم على تفكيرهم، ورغبتهم في التمسك بالماضي وترك ما يعكر صفوهم.

ولعل هناك أسباباً أخرى منها: " كان المكيون مغرورين ،وكان يغرهم المال على الخصوص([2]). انحدر محمد من أصل طيب، ولكن جهوده لم ترفعه إلى مكانة ملحوظة في المجتمع المكي، ولو أنه تزوج أغنى أرملة في مكة - وما زاده ذلك شهرة – إلا أنه لم يكن أكثر من تاجر قوافل، وكان دائما

١- " انتهى رسول الله إلى رسم قبر، فجلس وجلس الناس حوله كثير، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ،ثم بكى، فاستقبله عمر ، فقال ما يبكيك يا رسول الله؟ قال " هذا قبر أمي آمنة بنت وهب،استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فأبى علي، وأدركني رقتها فبكيت" البداية والنهاية ابن كثير مجـ١،جـ٢٣، صـ٣١٢-٣١٣ والحديث له رواية من جهة أخرى، وفي نهايته قول الرسول وترك علي" ما كان للنبيّ والذين امنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم (التوبة ١١٣-١١٤)

٢- يرى مونتجري وات أنه قد " عززت ظروف الحياة التجارية في مكة الاتجاه إلى الفردية والبعد عن التكافل القبلي ،فالزعم من أن النظام العام كان معتمدا على نظام العشيرة ،إلا أنه كان في إمكان عائلة واحدة ،أو حتى فرد واحد مع أقربائه أن يكون وحدة قادرة على الاستمرار في الوجود ، ولهذا ،كثيرا ما نرى رجالا يعارضون عشائرهم ،فأبو لهب مثلا اتحد من محمد(عليه الصلاة والسلام) موقفا حالفه فيه باقي بني هاشم، كما جاءت المعارضة لعثمان بن الحويرث من عشيرته ، وكذلك أسلم أتباع محمد الأوائل بالرغم من معارضة عشائرهم بل حتى أبائهم ،ويبدو أن المشاركة التجارية كانت تعلو أحيانا على القرابات

أجيراً يعمل مقابل أجر أو عمولة، فلماذا تختار العناية الإلهية مثل ذلك النكرة(في مجتمع المال) لتبدل العقائد التي استقرت قروناً بالبلد الحرام؟ لو أن النبي كان من عِلية القوم الأربعمائة، ولو كان من أعضاء الندوة الأثرياء، أو أحد بني المطلب الذين عاشوا حول الكعبة، ولو أنه ممن شاركوا في حياة المرح، لهذه المدينة المرحة في الصحراء، لنُظِرَ إلى آرائه نظرة اعتبار، ولكنه ما كان كذلك، بل كان نقيض ذلك.

وكان بُعده عن الولائم والخمر والسمر، أحد أسباب المعارضة القوية التي واجهته، فقد خشى القوم ألا تكون نتيجة ذلك الهجوم تحطيم معتقدات الكعبة فقط(١)، وهي تراث مكة الوحيد، بل قد يجرفهم بعيداً عن لذاذات الحياة التي يحبونها.

ولو نجحت الدعوة الجديدة لذهبت الكعبة، وذهبت بذهابها موارد قريش ودخلها، وسيتبع ذلك كساد الأعمال، وعدم خروج القوافل، وانقطاع الحج إلى الكعبة، فما عاد هناك من داعٍ إلى عبادة الأصنام ،تلك الأصنام الذكور والإناث، التي قضت حياتها في صمت بليغ في حرم الكعبة، والتي جلبت الثراء إلى مكة، إنه لمن الجنون المطبق نبذها، للميل إلى إله آخر، نصيره الوحيد، ليس له العقل الذي يفهم أن الحظ كله في جانب الأوثان".(٢)

هل وقفت تلك الأسباب لعدم الإيمان به وبدعوته موقفاً شامخاً ومحاججاً عنهم في صدهم وهجرهم دعوته؟

وقد ساق القرآن العديد من الحجج التي قالوها منها قوله فيهم:" وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولا"(الإسراء:٩٤)

كانت قريش وحدة واحدة في تصديها لمحمد، وقد شكلوا جبهة لمناصبته العداء، والمتفحص للأمور يرى أنه:" يكاد يكون التنظيم الحكومي الوحيد في مكة هو الملأ وهو تجمع من شيوخ العشائر وزعمائها، وكان هذا المجلس استشارياً فقط وليس له سلطة تنفيذية. كانت كل عشيرة مستقلة عن

١- يعلن الكُتّاب جميعهم أن المكيين كانوا يعتقدون أنهم على الحق الديني، وأن رب البيت يقرهم على ما هم عليه ولديهم أسباب لذلك الاعتقاد منها أن أبرهة الأشرم لما هاجم الكعبة تصدت له الطيور الأبابيل ، وصدته ، وأن الفيل لم يتقدم نحوها بالشر، ونصرهم الله على ما هم عليه من الفحش على حاكم دولة وصاحب دين سماوي ، ما يعني أنهم على الحق وإلا لخذلهم الله تعالى ،وهو ما جعل أبا طالب لا يؤمن - حتى الوفاة - لملا يدنل دين عبد المطلب ، ثم إن لهم إرثاً دينياً تليداً يقوم على تقديس الكعبة وأنه لم تعمهم أية نازلة بسبب الأصنام ولو كان الله يبصره وجود الأصنام وعدم استقامتهم لربما كان أمطر هم بالويل منذ قرون، فما وجه صبر ربهم عليهم كل هذا ثم يكون الأمر في نهايته مجرد إرسال رسول ليغير الأمور كلها ، ويطالبهم هم أن يغيروا ما وجدوا عليه الآباء الذين حققوا نجاحات متتالية في مختلف المجالات ؟ من هنا لابد من القول بأنه مجنون ذلك الجنون الذي هو مخالفة الواقع ، ألا ترى يا محمد أننا على الحق وأن العالم تنافسه قوى جبارة شرقا وغربا وتحيط بنا ولكنها لا تقترب منا، وإنا لما حاربنا الفرس هزمناهم في موقعة ذي قار؟ فكيف نكون نحن على القوم وأشرافهم ومن سبقونا على الباطل ونكون أنت على الحق؟ لابد أن إلهك ليس هو الإله الحق إن كان لك إله، وإن تكن تعاليم الكتاب الذي يأتيك من السماء تطالبك بذلك حقا ، فهل خفي على مدبر أمر السماء الماضي العظيم ثم إن الاختلافات بيننا قد تكون مجرد اختلافات في طبيعة النظر إلى الأمور لا تكون مخطئين تماما ، ولدينا أحلاف كنت أحد أعضائها ولم تقم ما إلا اليوم فلِمَ كنت طوال عمرك قبل هذا؟ ومناقشة تلك القضية تحتاج سفر طويل ، وتتلخص في أن الله لا يعجل على الناس حين يضلون طريق عبادته ، ولعلها تحتاج إلى بحث يتصدى الرؤى الفلسفية وما عداها في تصدي وجهة نظر شافية وصافية حول مسألة ترك الله الناس يعبدون سواه ولا يسخط عليهم " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ"(الذاريات ٥٦)

٢-ر ف بودلي الرسول "حياة محمد ، ترجمة محمد محمد فرج و عبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر ١٩٨٩م،ص٧٢

غيرها ولها حرية التصرف في أمورها.

يكمن جزء كبير من قوة مكة في قدرة شيوخها وزعمائها على توحيد فكرهم وإضعاف المنافسات الثانوية لصالح الجموع. وتعتبر تسوية النزاع الذي نشب بين الأحلاف والمطيبين أحد الأمثلة على

ذلك، كما أن إعداد مكة للقتال بعد هزيمة بدر مثالاً آخر.(١)

ذلك يعني أنهم في النوائب وحدة واحدة، ولكن بتقصي الحقائق نجد أن بعض أثرياء قريش الذين يمتلكون ثروات في الطائف كانوا هم زعماء الحركة المعارضة للنبي.

وهكذا.. ظل الحال على هذا المنوال حتى هاجر الرسول من مكة قاصدا المدينة متخفياً في جنح الظلام، ولعل القرآن لو جاءه بوحي كما قصّ عن حال موسى لتطابق القصُّ.(٢)

وقد اهتم السرد القرآني بتفاصيل ووقائع الحدث ذاته، وأخبر المسلمين عن التدخل الإلهي في إنجاح الحدث (يس:١١/١) وكذلك(الأنفال:٣٠) وقد قارن الله تعالى بين مكرهم ومكر الله تعالى، فالراجح

أن اللغة هنا مجازية فقط، ولا يستوي أن يكون مكر إزاء مكر، فمكرهم خبيث ومكر الله هو الحق (فاطر:٤٣) وتعددت أوصاف المكر في القرآن والمكر السيء كله منسوب إلى الكفار والضالين أنظر(آل عمران: ٥٤، الأنعام: ١٢٣، إبراهيم: ٤٦، النحل: ٤٥، النمل:٥٠ ، غافر: ٤٥، نوح:٢٢)

كل ما سبق يحيلنا إلى أسباب التصدي لدعوة يتيم أبي طالب، وهذا التصدي لم يقتصر على المرحلة المكية، بل امتد إلى المرحلة المدنية، غير أن المهاجرين قد بدأوا في شن غارات على قوافل قريش، ما تسبب في حرب بين قريش والمسلمين من المكيين واليثربيين. وصارت الحرب سجالاً، حتى فتح

١- و موتسجمري وات محمد في مكة، ترجمة د عبد الرحمن الشيخ ، حسين عيسى ، مراجعة د أحمد شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، ٢٠٠٢م ،صـ٥٩ وتساعد قصة عثمان بن الحويرث على تصوير سياسة الحياد التي كانت عليها مكة ،فقد دخل عثمان بن الحويرث في مفاوضات مع البيزنطيين أو عملائهم وحصل على وعد بالمساعدة ، ولا شك في أن البيزنطيين كانوا يفكرون في شيء يشبه إمارة الغساسنة في حين ذكرت المصادر أن عثمان كان يطمع في أن يكون ملكاً على مكة ، وكان هذا جزءا من رد فعل البيزنطيين لغزو فارس للجنوب، وأعلن عثمان أن البيزنطيين سيعاقبون الحنود إذا لم تقم لهم هدايا معينة ، وأنهم وكلوا إليه مهمة جمع الهدايا وهذه قصة طويلة انتهت برفض القرشيين لهذا وحثوا تنصيب عثمان ملكاً على قريش وهو ما لم يكن في حيالهم

٢- هناك مغالطات كثيرة في وجوه الشبه بين هروب موسى وخروج محمد عليهما السلام، فقال القرآن عن موسى " وجاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ "(القصص ٢٠) وكان موسى قتل فيهم رجلاً، أما محمد فلم يقتل أحدا، ولكنه قتل تعاليمهم الباطلة وأصنامهم بسهم النبوة والقرآن في معتقداتهم الباطلة وحرّقهم بالآخرة ، وأنكروها ، وأعلمهم أن الآباء السابقين جميعهم في النار

المسلمون مكة، وضموها لسلطانهم.(١)

ما كان الرسول ليجد بعد جهاد ١٣ سنة كاملة في مكة إلا العنت في أغلب القوم فاضطر للبحث عن طريق بعيد عن التصدي الجامح، فذهب إلى الطائف، يلتمس منهم النصرة ولكن الصلات القوية بقريش جعلت الطائفيين يلاقونه بشديد الهوان، فكانت أحداث الهجرة التي تمت بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية على يد العباس بن عبد المطلب، وانتقل الإسلام إلى بلاد مجاورة، فيها اليهود والوثنيون، غير أن أغلب هؤلاء الوثنيين كانوا قد آمنوا بالإسلام حتى قبل وصول الرسول إليهم ما جعلهم جميعاً في تشوق إلى رؤيته، وكانت اليهود تخبرهم بقرب ظهور نبي يقاتلونهم به وينتصرون عليهم كما هو مشهور، فأسرع الأوس والخزرج إلى الإيمان بهذا الرسول، ولما وجدته اليهود من غير الإسرائيليين كفروا به، وكانت هناك معاهدات في البداية، ثم نقضت وراح الرسول يصدم اليهود ومعهم بعض النصارى ، وشملهم في خطاب أهل الكتاب، وتوعدهم وحاربهم مادياً وفكرياً ومعنوياً، وكانت الدائرة معهم على خلاف قريش لا تدور إلا على اليهود (بنو قينقاع – بنو النضير – بنو قريظة – خيبر)

وقف الوحي على طول السرد القرآني يصف العداوة بين اليهود والمسلمين وينميها ويؤكد مآل اليهود وحقيقة مشاعرهم تجاه المسلمين ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :" مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلا المُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَّشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ (البقرة :١٠٥)
وتابع :" وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "(البقرة:١٠٩)
ثم وصل معهم إلى حد المباهلة فقال:" قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ "(آل عمران: ٦٣)

ثم واصل على نفس النهج يقول:
"وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ" (آل عمران:٦٩)
" يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا

١- مما هو معروف أن العرب قبل الإسلام كانت تعتمد في اقتصادها على أحد أمرين التجارة وشن الغارة، ولما كان المهاجرون من مكة قد أجبروا بحال من الأحوال على ترك كل أموالهم(صهيب الرومي نموذجاً) واستولى عليها القرشيون وصادروها فقد كان لزاماً عليهم أن يستردوا تلك الأموال من قافلة يقودها أبو سفيان ، ولجأ المهاجرون إلى ذلك بعد أكثر من عام من الهجرة بسبب نقص الموارد في المدينة، وبدأ عبد الله بن أبي بن سلول يلوم البثريين على تنازلهم عن أموالهم للمكيين ، ومن ثم بحث الرسول عن مصادر للرزق، فهاجموا القافلة للحصول على المال، فدأت السلسلة المعروفة من الحروب بينهما ، والغالب أن معظم تلك الحروب كانت لأسباب مادية ، بدليل أن وقتع غزوة أحد تدلنا على أن أهم سبب لهزيمة المسلمين هو ترك الرماة مراقعهم بحثاً عن نصيبهم في الغنائم ، وقد فصلنا ذلك ببعض التفصيل في كتابنا "تأملات حول نساء الحياة " فانظره هناك

وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنَّ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (آل عمران:٧٠-٧٣)

" قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (آل عمران:٩٨-٩٩)

ثم يعقد مقارنة غير محايدة بين جماعة المسلمين وجماعة أهل الكتاب قائلاً:" كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ" (آل عمران:١١٠)

ثم يواصل بذات النبرة:" يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا" (النساء:١٥٣(

" فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا* وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (النساء:١٦٣-١٦٤)

وواصل القرآن اتهامه لليهود بأنهم يخفون الحقيقة ويخفون الآيات المنزلة التي تثبت صدق محمد في دعوته فقال:" يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ"(المائدة:١٥)

يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة/١٩(

"قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ

القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ "(المائدة: ٥٩-٦٠)

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ "(المائدة :٦٥-٦٦)

" قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ" "(المائدة:٦٨(

وهناك أكثر من عشرات الآيات تتحدث عن العداوة الباطنة والظاهرة والتي تكشف عن كيد اليهود للمسلمين ومن ذلك قول الله تعالى:" وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنَّ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ "(آل عمران:٧٢-٧٣)

ويمكنني أن أحشد المزيد، لكل هذه الآيات قصص، وقبلها أحداث وبعدها أحداث، وهناك ما لا يمكن إخفاؤه عن مظاهر العداوة والبغضاء بين الجانبين، فقد خرج محمد(ص) من بين أعداء لهم حسابات تجارية وسياسية وعصبية قبلية إلى عداوات أخرى لا تقل قيمة أو أهمية، ولكن نصر الرسول على الوثنيين كان برغبة أن يدفعهم إلى الإيمان وقد قال الله في ذلك: " فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا "(الكهف:٦) وقيل له سوى ذلك، أما بالنسبة لأهل الكتاب فلم يكن عند محمد (ص) نفس الرغبة ولا الحرص على إيمانهم، كما أنه لم يكن عنده ذات الرحمة بقومه ولو في الحروب، كما كانت القسوة متبدية مع اليهود (إبادة مقاتلي بني قريظة تقف شاهدا إزاء العفو عن أسرى بدر وكبار مشركي قريش عند فتح مكة،والأمثلة كثيرة)

مما سبق يمكن إجمال الآتي:

- كانت النبوة حدثاً فريدًا في الجزيرة العربية لم يدعيها أحد قبل محمد (ص) بمئات السنين، وأنه قد صدم العرب في أقواله عن الآخرة والعذاب وأنهم على ضلالات مبينة وأن آباءهم في السعير.
- كانت العرب تنظر إلى أمر محمد (ص) نظرة ترقب، فلم تتدخل قبيلة ضد مصلحة قريش، وكان

رفض قريش لنبوة محمد لاعتبارات سياسية ثم عصبية ثم تجارية، وثم ثقافية بدرجة عالية وتراثية بدرجة أكبر.

- استطاع الرسول أن يقوم بالأعمال الآتية:"[1]

١- توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل لا تجمعها جامعة، ولا تعطفها على عناصرها عاطفة.

٢- قضاؤه في أمة برمتها على وثنية كانت متوارثة فيها منذ آماد طويلة.

٣- إحلاله محلها ديناً ينافي ما كانت تدين به من كل وجه .

٤- إحداثه إصلاحاً اجتماعياً قلب طبيعتها من جاهلية مظلمة، وإباحة متحكمة، وغفلة متغلبة، إلى إنسانية متلالئة، وفضيلة متوثبة ويقظة لا تدع فرصة إلى الأغراض الشريفة، والمقاصد النبيلة إلا انتهزتها، حتى وصلت إلى زعامة البشرية في سنين معدودة.

٥- تأسيسه دستورا حكيماً وحَمَلها على إتباعه، فتأدت إلى أكمل ما تتوق إليه جماعة من ترابط بين أجزائها، وتكافل بين آحادها، وتضافر بين جميع قواها المعنوية للوصول إلى غاية ما يمكن الوصول إليه من مكانة بين الأمم.

٦-وضعه أساس أمة عالمية لا يكون فيها للفروق القومية واللغوية واللونية أثر."

ويمكننا بالطبع مناقشة بعض تلك الأمور التي سردها العلامة محمد فريد وجدي وأتوقف عند البند الأخير، حيث إن المتتبع لأحوال الأمة العربية عقب وفاة الرسول يجد خلاف ما ذكره العلامة وجدي، فمن حيث النظرية فإن الرسول أكد على إلغاء الفروق التي ذكرها، ولكن التطبيق العملي كان مغايراً للوصايا النبوية من عدة وجوه وأسوق على ذلك الأمثلة الآتية:

١-مسألة اختيار الخليفة الذي ترضى به العرب بعد الرسول. (لم يكن إلا قرشياً حتى ١٥١٧ م، أي لمدة تسعة قرون ونيف سنة)

٢-تقديم العربي على غير العربي. (حتى في الكفاءة الزوجية والوظائف والأعمال)

٣-تقديم الحر على العبد أو من كان عبداً. (استنادا لفقه مستمد من العقوبات على الحر والعبد والأمة، خاصة في موقف الفقه من البغايا)

٤-تقديم غير الطامعين في الحكم والخلافة على القبائل التي طمعت في الحكم والخلافة كالخزرج وبني هاشم.(فلم يتول أحد من تلك القبيلتين في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب أي عمل، واستبعدوا من لجان جمع القرآن وخاصة بني هاشم)

٥-توحيد الصفوف العربية على أهداف اقتصادية أكثر منها أهداف دينية. (الفتوحات العربية

١- انظر: محمد فريد وجدي: السيرة النبوية ، صـ٤٢

الإسلامية للأقطار)
٦-عودة النزاعات القبلية مستترة بغلاف ديني جديد يكسبها شرعية محدثة، ما ظهر بين بني أمية. (معاوية، وعلي بي أبي طالب)

لكن يبقى أمر هام لابد من ذكره، فعلى الرغم من أن العرب كانوا يخضعون لقوانين متشابهة، ويتكلمون لغة واحدة، ولهم وطنية عربية مشتركة، إلا أنهم كانوا قبائل مستقلة، لكل عاداتها ولهجتها، على أهبة الذود عن حياضها. ومازال العرب حتى اليوم يحسون مثل ذلك الإحساس، وهذا يجعل من المستحيل قيام حكومة عربية مركزية، فإذا ما صار رجل من رجال الصحراء قائدًا لهذه

القبائل، ثم يجمعها جميعاً تحت لواء واحد لتموت دونه، لأمر يدعو إلى الدهش، فما بالك إذا خرج هذا الرجل من رجال الحضر، الذين لا يوقرهم أهل البادية كل التوقير، إن هذا ليبلغ حد الوهم والخيال، لكل هذا الذي يتوقف عنده المستشرقون، وغيرهم من الكُتَّاب أقول: إن الشيء الوحيد الذي أنجز ذلك هو وجود نبوة لرجل في حجم محمد بن عبد الله النفس التي كانت فوق مطالب الدنيا، ولما مات لم يكن عنده منها شيء ذي بال..

وكان الحديث عن أن الرسالة الإسلامية هي خاتمة الرسالات يثير مجموعة من التساؤلات على الجانب المحلي والصعيد العالمي.

فعلى الصعيد المحلي نجد أن قومه قد وازنوا بين تحقيق الشرف بمقاييس دينية من عمارة المسجد الحرام، وتقديم الخدمات للحجيج، ثم إذ بظهور نبي من أحد الفروع يهيمن على كل ذلك، ويمكنهم التغاضي عن ذلك مؤقتاً لبني هاشم لحين انتقال الفضل تارة أخرى لقبائل قرشية مجاورة لبني هاشم ،ويكون إحراز الفضل بالتناوب وهو لا يحقق المساواة المنشودة التي لا ينشدها أحد الطرفين ولكنه يحقق نوعاً من العدالة.

أما وأن هذا النبي لا نبي بعده، فهذا يعني إغماطاً لقدر ومكانة من كانوا يرون أنفسهم أفضل ممن خرج من بينهم نبيًا، خاصة وأن ذات النبي لم تخرج من بيت مال ولا عز ولا جاه عريض، بل هو يتيم أبي طالب، ما يعني أن أنظمة قريش المستتبة كلها سوف تتقوض، ولا هوادة في حرب آتية ولا وريب، ومن ثمّ فيكون بعض آل محمد في جانب الحاقدين والناقمين ليضمن مكانة وسطهم إذا أطاحوا بمحمد وأبادوا دعوته وقد كانوا قريبين من تحقيق ذلك مرات كثيرة.

أما عن الصعيد العالمي لا يخص إلا ديانات بني إسرائيل الذين تمكنوا عبر القرون الماضية من نشر دعواتهم إلى ربوع الإمبراطوريات الكبرى، بمذاهبهم المنوعة، في شتى ربوع الشرق والغرب (نقصد شرق وغرب الجزيرة العربية) وانتهت صراعات فكرية وتأدى عنها صراعات وحروب نشبت لفرض بعض المذاهب بالقوة وقد ظل هذا طويلاً في أوربا (الكاثوليك – البروتستانت، حرب الـ٣٠ عامًا) فأن يخرج نبي يتعرض لمقدساتهم وينتقد كتبهم، ويسفّه آباءهم فلابد أن يحتووا هذا الكتاب وذلك الدين الجديد، بطرق مختلفة، فالهجمة الجهادية الأولى كانت شرسة وقوية وفتية، لم تستطع الدولة البيزنطية صدّها ولا ردّها، فانهارت وتداعت سوريا ومصر وغيرها.

فلزم التنبيه على أن محمداً سرق دعوته من أصول الديانتين الأخريين؛ ليؤكدوا للعالم كله أنه مجرد لص وأن دعوته لا يمكن أن تكون إلهية؛ ولذا يطلقون على الإسلام الدين المحمدي لليوم.

ومن هنا فإنني أؤكد أن موقف القرآن من أهل الكتاب(اليهود والنصارى) يشبه موقفه تماما من أهل الجزيرة (حال وثنيتهم)، ولا يتغير الموقف في كليته بل في تفاصيل فحسب، فكلاهما على ضلال وكلاهما في النار سيخلد فيها (بل أهل الكتاب أضل لعلمهم بالكتب)، والموقف رغم تشدده معهم في هذا يتميز بصلابته العنيفة ولعل ذلك يعود لمصدره الإلهي.

المبحث الثاني: القرآن الكريم[1] وإشكاليا ته المتنوعة قديمًا وحديثاً:

ينقسم هذا المبحث إلى عدة موضوعات متشابكة والحديث عنها سيكون في إطار الفكرة الكلية الشاملة؛ لكثرة ما تمّ تناولها وتعددت مناهج الباحثين فيها قديماً وحديثاً (شرقاً وغرباً)، وهذه الموضوعات هي:

- مصدر القرآن الكريم.
- ترتيب السور والآيات.
- اللغة القرآنية.
- موضوعات القرآن الكريم.
- وجوه الإعجاز.

قبل البدء لابد من التنويه إلى ضرورة إعادة صياغة طرق وآليات التفكير في القرآن الكريم، فمن ذلك مثلاً: لابد من دراسة القرآن الكريم دراسة سياسية تاريخية محايثة للواقع[2]، حيث لا يمكننا مطلقاً الحديث عن التطورات في العلاقات الإسلامية اليهودية في المدينة المنورة على أنها نزلت دون نشوب صراعات حقيقية على أرض الواقع، والقرآن كان ترجمة لتلك الصراعات، ولم يكن التنزيل سابقًا لتلك الصراعات، أي أن الصراعات ذاتها هي التي وجهت لنزول الآيات ولم توجه الآيات لإحداث الصراع(مع ضرورة التنويه إلى العلم المسبق من قِبل مُنزِّل القرآن لحقائق اليهود التي عمد إلى فضحها لاحقاً مع تطور الصراع الديني الإسلامي اليهودي)

ولعل الحديث عن علم أسباب النزول في الفقه القرآني، أو كما هو عند بعض المفسرين؛ إذ لا يهتم بعض علماء القرآن بهذا العلم، فالعلم كله يندرج تحت إطار مناسبات نزول الآيات والعلم برمته يؤكد ما ننحو إليه، إذ أنه(أسباب النزول) يقف عند الملامح الظاهرة، فتقول لما حدث كذا أنزل الله قوله كذا، وكان النزول بمثابة الطبع على الحدث، وهناك أمور كثيرة خالف القرآن فيها ما توافق عليه النبي في الكثير مما يسمى اجتهادات، كالموقف من أسرى بدر[3] والاستغفار لمنافقي المدينة[4](بن

١- لابد من التنبيه على أنني حين أتعرض لآية نصوص قرآنية في آية أبحاث وكتب إنما أتحدث عن جانب محدد (جدا) من ملامح النص القرآني، وهو جانب المفهوم العقلي لظاهر النصوص القرآنية، أما مراد الله تعالى بها ، فلا دخل لي به ؛ نظرا لأن الحديث عن فهمي للقرآن قد يكون صواباً أو على خطأ ، وقد يتغير مع الأيام وتدفق العلوم والفتح الذي يكون من الله تعالى لفهم آياته ، وهذا أمر متحدد أما مراد الله تعالى فلا أعلمه ولا أدعي أن قولاً واحداً لي في أية آية سيكون هو المفصل اليوم أو غدا، لزم التنبيه إلى قدسية القرآن فوق العقل البشري ، وفوق الفهم العقلي والفهم الروحي بدلالاته المتغايرة

٢- دعنا لمس هذا أو قريب منه سيد قطب، ولكنه كان مغرضاً ويهدف لخدمة جماعة ماسونية ، أما أنا فأقصد الخلو من الأهداف المذهبية ، والمرامي السياسية الهادفة لخدمة جماعة معينة، فالحاصل أنهم يستخدمون القرآن لخدمة جماعتهم ، أما نحن فنريد أن نستخدم الجماعات لخدمة القرآن فنار لنا الظلمات بفضل القرآن

٣- يقول الله تعالى " مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (الأنفال/٦٧- ٦٨) ذلك بأنهم بعد موقعة بدر أحذوا سبعين أسيرا وتراءوا فيهم فكان فريق يرى القتل وآخر يرى الفداء ، فوافق الرسول على الفداء، رحمة بقومه ، وقد عاير تلك النظرة الوحي

٤- ذلك قوله تعالى " ولا تُصلِّ على أحدٍ منْهم مَاتَ أبدًا ولا تَقُمْ على قبْرِه إنَّهُمْ كَفَرُوا باللهِ ورَسُولِه ومَاتُوا وهُمْ فاسِقُون"(التوبة ٨٤) نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وكان الرسول وقف على قبره تلبية لدعوة عبد الله ابنه

سلول عند موته) وغير تلك المواقف.

* مصدر القرآن الكريم:

مصدر القرآن: قضية بحثها الكثيرون من العلماء المستشرقين، وخلص العديد منهم إلى أن مصدره كتب اليهود والنصارى، العهد القديم والعهد الجديد(١) ، والقليل منهم من يرى أن مصدره إلهي، والمسلمون على أن مصدره هو الله تعالى عبر الوسيط جبريل.

وعند المسلمين أي قول يخالف ذلك يُعد كفرًا بواحاً يُخرج صاحبه من الملة، فلا يمكن القبول بأن القرآن عمل من عند محمد أو أنه قام بذلك أو حتى تجرأ عليه، وهذا أمر نوقش في القديم إبان النزول القرآني نفسه، ونجده مبثوثًا في ثنايا القرآن في الكثير من مواضع القرآن المكي، ومن ذلك قوله تعالى:" وهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ" (الأنعام:٩٢)
ويقول أيضا في المعنى ذاته:" وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الأنعام:١٥٥(وكذا قوله:" إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (يوسف:٢) ، وكذا قوله :" الر* كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ (إبراهيم:١).
وكذا قوله تعالى:" وَبِالحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا" (الإسراء:١٠٦)، وكذا قوله :" وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا" (طه:١١٣)، وكذا قوله متحدثاً عن زمنية النزول :" إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ" (الدخان:٣) ، ويؤكد على تلك الزمنية ويخصصها قائلاً:" إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ" (القدر:١) وكذا في (الأنبياء:٥٠، ص: ٢٩)

من دون الدخول في تفصيلات كثيرة يسردها المفسرون في كتبهم نجد أن هذه النصوص السالفة تؤكد على أن القرآن مُنزَّل من السماء على قلب الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم)، وفي النصوص السابقة يتضح أن الله يتحدث عن التنزيل في ذاته ويصف التنزيل بأنه قرآن عربي مبين وظيفته أن يقوم محمد بإبلاغه للناس ولينذر أم القرى ومن حولها (٢)، وفي هذه النصوص يتأكد أن مصدر

١- انظر على وجه الخصوص هربرت يوسف أسس الحوار في القرآن الكريم ، دراسة في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة أحمد محمود هويدي ، المركز القومي للترجمة ، ط٢ ، ٢٠٠٩م، فهو يؤكد على الفكرة بعبارات صريحة أحياناً وتلميحاً أحياناً أخرى
٢- سنوقف مع تلك الآية في الفصل الخاص بالدين المحلي والفهم الصيق، ولعلها تحمل دلالات وإشارات فوق ما يتصوره البعض، وهذا ما يؤكد تجدد القرآن عبر القرون وأنه – حقاً- لا يخلق على كثير الرد

القرآن ليس من تأليف محمد، وتلك الفرية قال بها بعض معاصريه من أعدائه(١)، وزعموا أنه مجنون وكاهن وشاعر وساحر.

وفي القرآن المدني سنجد مغايرة لذلك التوظيف القرآني عند الحديث عن التنزيل ومصدرية القرآن، ففي المكي كان الحديث موجهًا إلى الوثنيين العرب، أما في المدني فهو موجه إما لأهل الكتاب أو لفئة المسلمين الذين تحول أغلبهم من الوثنية إلى الإسلام فالخطاب مختلف في الأسلوب والمضمون ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً أهل الكتاب:" وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ" (البقرة:٤١) ويستمر موبخًا إياهم وشاملاً الأمرين معاً حيث يقول:" بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ" (البقرة:٩٠) ويتحدث عن الوسيط والمرسل والمتلقي منوهاً بإعراض أهل الكتاب قائلاً:" قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" (البقرة:٩٧) ثم يؤكد الله تعالى سبب رفضهم القرآن ويشركهم في ذلك السبب مع المشركين حين يقول:" مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَّشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ" (البقرة:١٠٥)

من كافة هذه النصوص – كثيرة للغاية – في القرآن وتزيد عن المائة وخمسين موضعًا نجد أن الله تعالى يؤكد وبشدة وبعبارات قاطعة لا تحتمل التأويل، أو كثرة التفسيرات بأن القرآن الكريم مصدره هو الله تعالى وحده، ولعل المفسرين يستشهدون على صحة هذا بما ورد في القرآن من أنواع التقريع للنبي في الكثير من المواضع في القرآن الذي يُتعبد بتلاوته ليوم القيامة، فكيف يكون القرآن من عند محمد وبه تقريع له؟(٢)

كل الذي أحاول أن أفعله الآن هو أن أسوق الآيات التي ذكرها القرآن للتأكيد على أن مصدر الوحي المحمدي كله من الله تبارك وتعالى، وهذا ما رفضه الوثنيون بدءا، ثم اعترفوا به لاحقًا عند اضطرارهم للدخول في الإسلام أو عند إسلامهم بلا اضطرار، أو إجبار.

هذا عن وثنيي العرب ومسلميهم أما عن أهل الكتاب أو النصارى واليهود فهم لم يؤمنوا بهذا مطلقًا حتى اليوم .

١- يقول تعالى في تفنيد تلك التهمة " وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ "(النحل ١٠٣)

٢- من ذلك قول الله تعالى عن أسرى موقعة بدر بين الرسول وأهل قريش عقب الهجرة من مكة قائلا " مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال ٦٧) وكذا قوله عن صده عن أحد قراء المسلمين ومحاولته استمالة كبرائهم قال القرآن " عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى " (عبس ١-٦) وهناك مواقف أخرى كثيرة تشير إلى أن الله تعالى لام الرسول فيها ،منها ما جاء في سورة الكهف والقصة مشهورة " وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا* إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا "(الكهف ٢٣-٢٤)

أما وثنيو العرب فقد قالوا كما حكى القرآن – وهو مصدرنا الأصيل في هذا- :" وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً "(الفرقان: ٥) وهي ذات الفرية التي تبناها أهل الكتاب بصيغ متباينة، ففي الحقبة المدنية نجد أن الخطاب القرآني صار حاداً جداً وشديد اللهجة إزاء اليهود، كما سبق وأوردنا في آيات قاسية تكشف عن التدليس الذي تتسم به الديانات السابقة على الإسلام .

إذاً نحن إزاء موقفين متعارضين تماماً بالنسبة لموضوع **مصدر القرآن الكريم:**

المصدر الأول: أنه من عند الله تعالى، وقد أيد هذا الاتجاه القرآن الكريم نفسه في عشرات الآيات كما مرَّ، ويؤيده أيضاً تصديق الأنباء التاريخية والشواهد العلمية الحديثة التي يتوصل إليها العلماء يوماً بعد يوم وغير ذلك.

والاتجاه الآخر يقف معارضًا ويؤكد أن القرآن مصدره محمد تعلَّمه من قِبل معلم نصراني كان يُعلِّمه إياه، وما زاد عن المعلم فهو من وضع محمد ذاته، اكتسب أغلب تلك التعاليم من خلال رحلاته وتتلمذه على أيدى الرهبان والعُبَّاد.([1])

وبالقطع أرفض الاتجاه الثاني رفضاً قاطعاً باتاً، وأسوق أسبابًا كثيرة لهذا الرفض:

أولاً: إن محمدًا كان بدعاً في فعل هذا الشيء، وبالتأكيد ما جاء به هو شريعة ودين جديد .

ثانياً: إن من يأتي بشيء مثل هذا من خلاله يقف معاديًا لأهله المقربين ويخبر أن جده عبد المطلب ووالده وأمه في النار ويصدم قومه كلهم، ويقيم ثورة اجتماعية ودينية وسياسية واقتصادية وثقافية ولغوية، ثم لا يكون له هدف من وراء ذلك من أمور الدنيا، يصعب علينا أن نصدق أنه فعل هذا كله بجهد بشري في ٢٣ سنة دعوية فحسب، وبلا مقابل ملموس.

ثالثًا: لو كان كل هذا من عند محمد فمن أنبأه بالكم الهائل من المعلومات العلمية الخفية عن الماضين والقادمين والحاليين.

رابعاً: إن أحدًا لم يستطع أن يتجرأ على إقامة ثورة سياسية فقط في قريش، فكيف يُحدث محمد كل هذا في الجزيرة ؟

خامساً: هناك بلا أدنى شك تشابهات كثيرة للغاية بين القرآن والتوراة والإنجيل، ولكنا نرفض علاقة التأثير والتأثر بينهم، بل كما يقول العلماء المسلمون الثقات، هناك تشابه؛ لوحدة المصدر الإلهي،([2]) ولو فرضنا وجود تشابهات مماثلة في موضوعات مغايرة بين القرآن وغيره من كتب الهند والصين وغيرهما من الأديان الأرضية وكُتبها التي كَتَبها الكهنة أو تشابهًا مع كتاب الموتى للمصريين القدماء،

١- وقد أشار القرآن أيضا إلى هذا الاتجاه نافيا إياه حين قال تعالى:" وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل ١٠٣) وهي سورة يتخلها بعض العلماء هي المكي وبعضهم هي المدني ، وهي المصحف مكية ولعلها من أواخر القرآن المكي وأقول لنفرض صحة أنه تعلمه من راهب نصراني كبير أو معلم خطير الشأن ، فالسؤال الأكثر إلحاحا ورجاحة الآن لم لم يقم هذا المعلم بنسبة هذا القرآن الجليل الشأن والعظيم الخطر إلى نفسه؟ واكتسب به تأييد أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون ظهور النبي ،ويحكم به العرب، فما هي إلا فرية افتروها على النبي للمحاجة والحاج فقط

٢- قصية مصدر القرآن الكريم قصية استشراقية قديمة حديثة ، فبعض المستشرقين نادى بأن المسيحية تمهيد للإسلام ومن أنصار هذا الرأي فيلهلم رودلف وريتشارد بيل الخ , وهناك من يدعي أن التوراة هي مصدر القرآن الكريم انظر هربرت بوسه أمس الحوار في القرآن الكريم، المركز القومي للترجمة، صـ٢٠

فإن مرد ذلك كله هو أن من يُشّرع للناس يبحث لهم عن السبيل القويم والفطرة المستقيمة وهذا ما جاء به القرآن.

لكل هذا أؤكد على أن قضية مصدر القرآن الكريم باتت قضية جافة ومستهلكة، وأنه بما لا يدع مجالاً للشك من عند الله تعالى، غير أنه يمكننا البحث في أمور أخرى في القرآن كالفهم والتفسير والتأويل وهو مناط الاختلاف، وربما التعارض بحسب أفهام أصحاب الهوى والزيغ والمصالح والسياسيين، وهو ما عطل مسيرة الإسلام عبر القرون.(١)

وأسوق الآن لبعض نقاط التشابه بين التوراة والقرآن.(٢)

التوراة	القرآن الكريم
(سفر الخروج الفصل العشرون) لا يكن لك آلهة أخرى أمامي	" وَ قَضَى رَبُّكَ ألا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ "(الإسراء:٢٣)
لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة	" فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ "(الحج:٣٠)
لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا	" وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ "(البقرة:٢٢٤) " لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ "(المائدة:٨٩)
أكرم أباك وأمك	" وبِالْوَالِدَينِ إِحْسَانًا" (البقرة:٨٣- النساء:٣٦- الانعام ١٥١- الإسراء:٢٣ – الأحقاف :١٥) النساء:-36 الانعام -151 الإسراء:23 – الأحقاف :15)
لا تقتل	" وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا "(النساء:29) (الأنعام :151 – الإسراء:-31 الإسراء:33)

١- هذا السفر كله ينطلق من قرصية أن سوء النية والرعية في السيطرة على الإسلام (ديناً وشريعة) وتوجيهه وجهة معينة لصالح السياسة ؛ ولكي يطبق أصحاب السلطان على الحكم من خلاله، هو ما جعل ركب الإسلام يتأخر ، وجعل الطاهن الفكري عند المسلمين في الأمس تطاحناً سياسياً مغلفاً في إطار ديني ، (والباحث سيكب سفرا ضخما يضم الفتاوى التي نافق فيها الفقهاء السلاطين من أجل الدنيا ومن أجل القرب منهم ، وكذا فضح الدسائس عبر القرون – وخاصة القرن العشرين الوهابي في فضح ممارسات أهل السياسة مع الدين والتحالفات مع الأعداء لأجل تثبيت العروش هذا ومستصح هذه الفكرة بجلاء في فصل الشيعة والخوارج ، ولن أملّ من تكرار تلك الفكرة في ثنايا هذا السفر وما يليه من أسفار قادمة)

٢- انظر د محمد عبد الله دراز مدخل إلى القرآن الكريم حقائق تاريخية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ٢٠١٠م، جـ٢، صـ ٣٩-٥٣ يكب جميع صور التشابه بين التوراة والإنجيل وأنقل هنا بعضها فقط للتدليل ، وأؤكد أنه تشابه لا تأثير وتأثر وأنزه الرسول عن تعلمه من كتابي عربي أو غير عربي، فإنما تلقى القرآن والوحي من الله تعالى عبر جبريل

لا تزن	" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ" (النور:30 31-)
لا تسرق	وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (المائدة:38)
لا تشهد على قريبك شهادة الزور	"وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّور" (الحج:30)
لا تشته بيت قريبك ولا شيئاً مما لقريبك	" وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ "(النساء:32)
لا تقبل خبرا كاذبا (خروج:٢٣-١)	" إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ"(النور:19)
لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر (خروج:١:٢٣)	"وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ "(المائدة:2)
لا تحاب مع المسكين في دعواه (خروج:٢٣-٣)	" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا "(النساء:135)
ساعد غيرك	" وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى "(المائدة :2)

ويمكنني أن أسرد الوصايا العشر التوراتية من خلال تلك الآيات القرآنية المتتالية في ذات السورة:" قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (الأنعام:١٥١-١٥٢) وهذا أخصر قول عندي.

وبالمثل هناك بعض التشابهات مع ما جاء في الإنجيل أوردها الدكتور محمد عبد الله دراز،وإني هنا أنقل أمراً آخر ، وهو التشابه الذي رصده جيمس هنري برستيد ما بين المأثور الفرعوني والتوراة،

في الجدول الآتي:([1])

الفرعونية	العهد القديم
أمينموبي(الحكيم المصري القديم) والرجل الأحمق الذي يخدم في المعبد مثله كمثل شجرة نامية في غابة، ففي لحظة يفقد فروعه ويجد نهايته في مرفأ الخشب وينقل بعيداً عن مكانه. والنار مأواه. والرجل الحازم حقاً ينتقي لنفسه مكاناً. فإنه مثل شجرة نامية في حديقة يزدهر ويتضاعف ثمره ويجلس في حضرة سيده. وثمرته حلوة وظله وارف، ويجد آخرته في الحديقة. (أمينموبي١،٦-١٢)	النبي إرميا (من أسفار الكتاب المقدس) ملعون ذلك الرجل الذي يتكل على الإنسان ويجعل الشر ذراعه. وعن الرب "يهوه" يحيد قلبه ويكون مثل العرعر في البادية ولا يري إذا جاء الخير. بل يسكن الحرة في البرية أرضاً سبخة وغير مسكونة. ومبارك ذلك الرجل الذي يتكل على الرب . "يهوه" وكان الرب متكله. فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياه وعلى نهر أصولها .ولا يخشى إذا جاء الحر. ويكون ورقها أخضر، وفي سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الإثمار. (أرمياه١٧:٥-٨)
أمينموبي المصري	سفر الأمثال العبراني
أمل أذنيك لتسمع أقوال واعكف قلبك على فهمها لأنه شيء مفيد إذا وضعتها في قلبك ولكن الويل لمن يتعداها	١٧- أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتي . ١٨- لأنه حسن إن حفظتها في جوفك . إن ثبتت على شفتيك (سفر الأمثال ٢٢:١٧-١٨)
لأجل أن ترد على تقرير لمن قد أرسله	٢١- لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك (سفر الأمثال ٢٢:٢١)

١- جيمس هنري برستيد. فجر الضمير.ترجمة سليم حسن، الهيئة المصرية العامة لتكتاب، ٢٠٠١م، صـ ٣٦١ وما بعدها في فصل بعنوان مصادر إرثنا الخلقي وهي كثيرة جدا، ونقل العالم الكبير عشرات الأمثال في كتابه، ويؤكد على أن الإرث الثقافي (حتى الديني) هو إرث إنساني متكامل ، وأن من اتصل بالسماء من مكان ما أو في زمن ما فإنه ترك بصمة لذلك الاتصال، وأرى أن الإنسان مهما كان فهو معقود الصلة بالله تعالى ولو كان في حضرة آدم مع الله تعالى ، ومن هنا وجب رفض كل مقولات الغربيين القائلين بأن القرآن مصدره الكتب المقدسة (العهد القديم - الجديد)

لا تزحزحن علامات حدود الحقول .... ولا تكونن شرها من أجل ذراع أرض،ولا تتعدين على حدود أرملة (أمينموبي(٧:١٢-١٥)	١٠- لا تنقل التخم القديم ولا تدخل حقول الأيتام (سفر الأمثال ٢٣:١٠)
الفقر في يد الله خير من الغنى في الهُرْى(المحزن) وأرغفة (تحصل عليها) بقلب فرح خير من ثروة (تحصل عليها) في تعاسة. (أمينموبي٩:٥-٨)	١٦- القليل مع مخافة (يهوه) خير من كنز عظيم مع همّ. ١٧- أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة(سفر الأمثال:١٥:١٦-١٧)
والثناء على الإنسان كشخص محبوب عند الناس خير من الغنى في الهُرْى (المخزن) (أمينموبي ١٦:١١-١٢)	-1 لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام ٢- (سفر الأمثال ١٧-١)
تبصر لنفسك في هذه الفصول	٢٠- ألم أكتب لك ثلاثين
الثلاثين حتى تكون مسرة(لك) وتعليما (أمينموبي ٢٧:٧-٨)	فصلاً من جهة مؤامرة ومعرفة (سفر الأمثال(٢٢:٢٠)

هل دلت تلك الأمثال على وجود تشابهات كثيرة بين حضارة المصريين القدامى والأسفار العبرانية؟ ويمكن فعل ذات الشيء والبحث عن تشابهات بين الكتب الهندية وغيرها من الكتب المقدسة، الغالب أن النبع الإنساني واحد، وخلافته مذهبية بسيطة، ولم يحدث التشتت إلا مع ظهور الإثنيات والعرقيات التي لا تقبل الآخر، وتنشأ الحروب الفكرية ثم العسكرية لنصرة كل فريق لعرقيته، بالقضاء على الآخر، ومن هنا جاء التعدد، وجاءت الفرقة والاختلافات، ولكن يبقى الينبوع الصافي موجوداً وإن خالطته الكثير من الشوائب هنا والقليل من الشوائب هناك.

* ترتيب السور والآيات:

أولاً: الجمع الأول والثاني:

روت أغلب الكتب التي في أيدينا أن القرآن الكريم كان مجموعاً قبل وفاة الرسول وأنه طلب من أصحابه أن يمحوا ما كتبوه عنه خلا القرآن في الحديث المشهور: " ألا من كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه" (١) وذكروا أن القرآن الكريم كان مكتوباً بعضه في صحف، وبعضه في جريد وفي لخاف وظُرَر وفي خزف، وغير ذلك من الأدوات التي كانت متداولة في هذا الزمن، ولم يفكر أحد من المسلمين في جمعه في مصحف واحد، حتى استحرّ القتل يوم اليمامة حيث قُتل سبعون - أو سبعمائة على الروايات الباطلة - من حفظة القرآن، ولعل السبعمائة للتهويل والتضخيم على عادة البعض، فأشار عمر بن الخطاب على الخليفة أبي بكر بجمع القرآن في مصحف واحد، فلم يجد قبولاً فورياً عند أبي بكر، فظل به وأقنعه بفعل هذا.

روى البخاري عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبوبكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب أهل القرآن إلا أن تجمعوه ،وإني لأرى أن تجمع القرآن! قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ فقال: هو والله خير! فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيتُ رأي عمر.

قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل أحد من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن(٢). قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله!! فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) إلى آخرها، فكانت الصحف التي جُمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى

١- احتج أنصار السنة على هذا الحديث الصريح بأنه كان في بدء الدعوة ولا يريد أن يختلط عندهم القرآن بالحديث، فيريد أن يكون القرآن نقيًا في لغته ومعانيه ومراده، فلما صاروا متفحصين للقرآن ولا يختلط عليهم بالسنة رخص لهم في كتابة الحديث والقول في هذا الباب كثير وكثيره كقليله ولا يجدي ولا يعجب

٢- تلك العبارة تحتمل أحد أمرين إما أن تكون الأمانة ثقيلة وهو يعرف ثقل الأمانة باعتباره سيجمع كتاب الله على عهدته فالخوف من وقوع الخطأ أو السهو في القرآن يُعد تجريباً ويجره إلى اعتباره من الماسقين والأمر الثاني أن يكون في الجمع أمر مخالف لما عهده من الرسول ، واحتاج لمراجعة الطويلة فهو لم يخبرنا في هذا الخبر كيف راجعه وما قال له من الحجج حتى رأى عين الرأي، والأمر برمته يبدو ليس مجرد تكوين لجنة لصمم السور في مصحف جامع بعد أن كانت متفرقة، ثم إن المصحف كان عند حفصة حتى مات عمر ولم يكن في وضع يشبه المكبة من يريده يطلع عليه ببساطة ثم أحرقه عثمان بعد ذلك، لا نشكك ولكنا نثير التساؤلات للإجابة عليها

توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر.(١)

وكذا روى البخاري تتمة فقال: قال زيد: لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا خزيمة الأنصاري – الذي جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين – " مِنَ المؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مِنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرْ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا" فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت الأنصاري فألحقتها في سورتها.

يضيف البخاري قائلاً: فسقطت الآية الأولى من آخر "براءة" في الجمع الأول، على ما قاله البخاري والترمذي ، وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة الأحزاب.(٢)

وفي الجمع الثاني الذي تمَّ في عهد عثمان بن عفان نجد أن سبب الجمع ليس مقتل العديد من الحفظة، بل الاختلاف على القراءات، فقد روى البخاري وغيره من كتاب الصحاح وأكثر المفسرين أنه قد نشب بين أهل الشام والعراق وغيرهم اختلافات في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان.
اجتمعوا في غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما رُوي لها؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا.(٣)

فأشفق حذيفة مما رأى منهم، فلما قَدِمَ حذيفةُ المدينةَ – دخل على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته، فقال: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! فقال: في ماذا؟ قال: في كتاب الله ،إني حضرت هذه الغزوة،وجمعت ناساً من العراق والشام والحجاز. فوصف له ما تقدم وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى.
قال عثمان: ما ترون في المصاحف؟ فإن الناس اختلفوا في القراءة حتى إن الرجل ليقول قراءتي خير من قراءتك، وقراءتي أفضل من قراءتك. وهذا شبيه بالكفر. قلنا ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة؛ فإذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً. قلنا: الرأي رأيك يا أمير المؤمنين. فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليكِ. فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد

١- البخاري: باب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٢٢٥/٣)
٢- هذه الإضافة كارثة وليته لم يفعل، أفهم من هذا أن هناك آية فقدت في الجمع الأول ولم تكن موجودة داخل مصحف أبي بكر، وعند الجمع الثاني اكتشفها، فلو أنه جمعه مرة ثالثة ورابعة لوجد آيات أخرى كان نسيها ، وهكذا يفتح الباب للقول بوجود رغبة في غير الهاشميين وخاصة الأمويين في عهد عثمان إلى الوضع في المصحف أو التبديل والسمح الكلي تلاوة وحكماً، وهو ما يتناه بعض فرق الشيعة على ما في كلامهم من فساد ظاهر تسانده تلك الروايات والجمع الأول بينه وبين الجمع الثاني أكثر من ثلاث عشرة سنة ، واحتمال السهو والخطأ أكبر
٣- صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن(٢٢٦/٣)

الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. وكان هذا بعد أن جمع عثمان المهاجرين والأنصار وجُلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك.

ولدينا عدد كبير من الملاحظات حول هذا الأمر، نسوق منها:

أولاً: إن عملية الجمع الأولى نفسها كانت بهدف جمع القرآن في مصحف واحد يرجع إليه الناس إذا ما استحرّ القتل في القراء وحفظة القرآن الكريم، وهذا ما أشار إليه عمر بن الخطاب في عهد أبي بكر الصديق.

ثانياً: موضوع الاختلاف على القراءة حدث بشكل أكبر في عهد الرسول نفسه من قصة عمر بن الخطاب ، ولم يكن هذا مدعاة لكتابة المصحف، يقول القرطبي: عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله أقرأنيها، فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته (قبضه وجره) بردائه، فجئت به رسول الله فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها فقال رسول الله: " أرسله، اقرأ" فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ؛ فقال رسول الله: " هكذا أُنزلت " ثم قال لي: " اقرأ" فقرأت فقال: " هكذا أُنزلت، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه".(١)

أي أن موضوع الاختلاف على القراءة موضوع قديم، وناقشه العلماء في مسألة القراءات، والأحرف التي نزل بها القرآن الكريم وهي مسألة متواترة البحث عنها في جميع كتب التفسير وهو علم كبير ومشهور، (علم القراءات) ومبحث الأحرف السبعة مبحث مشهور يغنينا شهرته عن البحث فيه والحديث عنه، ونستنتج من ذلك أن السبب الثاني لجمع القرآن في مصحف واحد لا يستقيم، فهل كانت الكتابة معجمة؟ كلا.. المشهور أن النقط لم توضع على الأحرف إلا في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي كما هو معروف، فكيف يضبطون القراءة بجمع المصحف ونسخه؟ كما أن الجمع الثاني لم يكن مجرد نسخاً للمصاحف وتوزيعها على الأمصار، واللجنة العلمية الثانية انبثقت عن الأولى، وأسند الأمر في المرة الثانية لزيد بن ثابت الأنصاري مرة أخرى، ولم يكن شخص كعبدالله بن مسعود في اللجنة ، وهو من هو وقد أعرب عن غضبه من استبعاده من جمع القرآن، ولكن أحداً لم يشر إلى شخصية كبيرة وعظيمة كعلي بن أبي طالب، وهو من هو في الحفظ وإليه يُنسب التفسير وعنه أخذ

١- القرطبي الجامع لأحكام القرآن، جـ١، صـ٥٩

عبدالله بن العباس التفسير، وهما من بيت النبوة، وقد واكب عليٌّ الدعوة في الطور المكي والمدني، خلافاً لزيد الذي لم يعاصرها إلا في المدينة، ثم إن علياً كان طفلاً صغيراً عندما بُعث الرسول وهذا أدعى إلى أن يكون عليٌّ على رأس اللجنة فالصبية أحفظ للقرآن من الكبار، ثم إنه قال إنه أعلم بكل آية متى نزلت وكيف نزلت، وهو من هو. وعن عامر بن وائلة قال: شهدت علياً بن أبي طالب يخطب فسمعته يقول في خطبته: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل!![1]

ثالثاً: كل هذا يحيلنا إلى القول بأن وضع القرآن في مصحف واحد في الجمع الأول – خشية قتل القراء – وفي الجمع الثاني – خشية الاختلاف في القراءة – قد تخطى الثقات الكبار، وخاصة أهل البيت والصحابة غير ذوي العصبة القبلية، ولعلهم قصدوا إلى ذلك؛ لئلا يكون القرآن حكراً على بني هاشم في التنزيل وفي الوضع.

رابعاً: يحيلنا هذا كله إلى القول بأن الوضع كان سياسياً، واستبعاد طائفة دون طائفة يشبه تماما عدم استعمال أبي بكر وعمر لأحدٍ من الهاشميين أو الخزرجيين طوال عهديهما؛ لأن كل منهما أراد الخلافة، أرادها سعد بن عبادة الخزرجي، ولم يبايع عليٌّ أبا بكر حتى توفيت فاطمة.

خامساً: فتح هذا الأمر الباب واسعاً على التقول في عملية جمع الآيات القرآنية، ما جعل البعض (الشيعة) يؤكدون وجود مصحف خاص يسمى مصحف فاطمة، وهناك مصاحف كثيرة كانت موجودة في العديد من الأمصار وخاصة العراق، شيعة علي بن أبي طالب.

سادساً: خضع القرآن في جمعه وترتيبه إلى العديد من العمليات التي استغرقت فترات طويلة، وخضعت لرغبات محددة تتسق مع الأهداف السياسية في الكثير الغالب منها، ويكفي الإشارة إلى الاختلاف في عدد الآيات بين مِصرٍ وآخر، فعند أهل البصرة عدد الآيات : ٦٢٠٤ آية، وعند أهل الشام: ٦٢٢٦ آية.وفي رواية:٦٢٢٥ آية.

والخلاف قائم داخل السور ذاتها، فالبعض يُعدُ بعض السور خلافاً للبعض الآخر، وهذا مبسوط في كتب التفاسير، وخاصة في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

اللغة القرآنية:

تحدث العلماءُ كثيراً عن اللغة القرآنية، ما بين منبهر بالأسلوب البياني وباحث عن وجوه التعارض بين اللغة القرآنية واللغة النموذجية التي يعرفها العرب، وقد استخدم القرآن الكثير من المفردات من

١- القرطبي جـ١، صـ٤٠

لغات أجنبية على العربية القرشية، ولكنها كانت معروفة لديهم بدرجات متنوعة كما سيأتي، وبرز في العلوم القرآنية تفاسير تفردت بالاهتمام باللغة كتفسير جار الله الزمخشري، وقد وضع العلماء شروطاً كثيرة للتأليف في التفسير أهمها المعرفة التامة والواسعة باللغة العربية وفنونها، وخاصة النحو والتصريف والبيان والمعاني وغيرها من العلوم التي يتوصل من خلالها إلى مقصود الله تعالى في الآيات والسور، ومن بين الأمثلة التي ترشد إلى أهمية اللغة وقيمتها هذا المثال الذي أسوقه: عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال: قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب فقال: من يُقرئني مما أُنزل على محمد؟ قال: فأقرأه رجل " براءة" فقال:" إن الله برئ من المشركين ورسوله". بالجر، فقال الأعرابي: أوَ قد برئ الله من رسوله؟ فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه!! فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يُقرئني، فأقرأني هذا سورة براءة فقال: أن الله برئ من المشركين ورسولِه " فقلت: أوَ قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه! فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي!! قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟

قال:" أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ " فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه!![1]

فأمر عمر بن الخطاب ألا يقرئ القرآن الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود فوضع النحو. وقيل بل أمره بوضع النحو الإمام علي بن أبي طالب، وربما يكون أمره عمر أولاً، ثم وضعه في عهد عليَّ حيث كان (ظالم بن عمرو بن سفيان الشهير بأبي الأسود الدؤلي) شديد الملازمة للإمام علي.

- كلمات خارجة عن لغات العرب في القرآن:

تلك القضية قد قتلها علماء اللغة بحثًا، ويُدِّرسها الأساتذة في المراحل الأولى من الجامعت المصرية وغيرها في الصفوف الأولى في أقسام اللغة العربية، ويعرفها الكثيرون وخلاصة القول فيها أن هناك الكثير من الكلمات والألفاظ غير العربية، وضعاً واستعمالاً، فالأعلام لا خلاف فيها مثل: إسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط، كلها غير عربي ،والكثير من أسماء الأنبياء غير: صالح، شعيب، لوط، هود، محمد.

ويرى فريق من العلماء أنه في غير الأسماء فإن الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم. ويرى البعض أن هناك

١- القرطبي الجامع لأحكام القرآن ، صـ٣٤

ألفاظاً قليلة وهي لقلتها لا تُخرج القرآنُ عن كونه عربيًا.(١)

يقول عبد الحق بن عطية: :فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعرّبتها فهي عربية بهذا الوجه."(٢)

اللافت عندي من كل هذا أن القرآن اعتمد التعريب والتلاقح الثقافي الذي تمَّ في جزيرة العرب عبر مئات السنين التي تمت فيها رحلات تجارية شمالاً وجنوباً، فمادام العرب يسافرون للشام فلابد أن يستفيدوا من لغة القوم، وكذا في سفرتهم السنوية إلى الحبشة وغيرها من البلدان بحكم التواصل الثقافي، وللعقاد رأي وجيه في التأثير الثقافي، فالكثيرون من العرب قد طافوا في البلاد، وعادوا محملين بكم كبير من الألفاظ والعبارات والمعاني الجديدة، وكان إطلاق الكلمات الجديدة في الشعر دليل على معرفة العرب بها، ولهذا نجد من مواقف نافع بن الأزرق مع ابن عباس ومسألته عن اللغة ومنافحة ابن عباس عن القرآن أكبر دليل على أن العرب عرفت كل ألفاظ القرآن الكريم، وإن كانت بعض ألفاظه وعباراته لم تكن في الأصل عربية.(٣)

والرأي عندي أن القرآن اهتم بالتواصل الإنساني واشتمل في الوحي على العديد من الألفاظ الأعجمية (غير العربية الأصل) اعتمادا لمبدأ التواصل الحضاري وأحد دعائمه التلاقح الثقافي اللغوي. عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله، وإن أحدا لن يستطيع الإحاطة بجميع مفردات اللغة، واستعمال القرآن للكلمة جعلها أكثر شهرة من غيرها.

جهود العلماء:

لم تكن العربية قبل الإسلام لها قواعد معروفة ولا معاهد لدراستها، بل إن العلماء اهتموا بذلك لما كثرت الفتوحات الإسلامية للأمصار واختلط العرب بغيرهم من الأمم، فخافوا من تفشي اللحن في

١- الأمثلة على ذلك كثيرة ، منها مثلاً المشكاة الكُوة ونشأ قام من الليل ومنه" إنَّ ناشئةَ اللَّيل"(المزمل/٦) وكذا العساق البارد المسن بلسان الترك والقسطاس الميزان بلغة الروم ، والسجِّيل حجارة والطين بلغة الفرس اليم البحر بالسريانية ، والتنور وجه الأرض بالعجمية

وكل هذا لا يُخرج القرآن من عربيته

٢- عبد الحق بن عطية تفسير المحرر الوجيز، جـ١، صـ ٥٨

٣- نشير إلى المجلسات التي عقدها نافع بن الأزرق مع ابن عباس وهو يتصدى لتفسير كتاب الله ومسألته عن العشرات من الكلمات واستفهم عن معناها ومسألته أتعرفها العرب، فكان ابن عباس يجيب ويأتيه على كل لفظة بيت شعر قديم ، ومن ذلك قول نافع بن الأزرق لابن عباس أخبرني عن قول الله تعالى " لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ "(البقرة من الآية ٢٥٥) ما السِّنة؟ قال الحُماس،قال زهير بن أبي سلمى

سِنَةٌ في طَوال الليل تأخذه ولا ينام ولا أمره فند

ويروى أن تلك المسائل بلغت ١١٩ مسألة أو غير ذلك ، راجع تاريخ اداب العرب للرافعي،(٢٣٦/٣، ٤٨)

القول ، وتطرق الخوف أن يصل ذلك كله إلى القرآن الكريم، فعمدوا إلى وضع قواعد للغة لتحصينها من اللحن والتشويه والاندثار، وحاولوا الجمع في التقعيد اللغوي بين" النص القرآني من جهة وبين كلام العرب ممثلاً في الشعر خاصة من جهة أخرى، أي بين كلام الله وكلام البشر، وقالوا إن القرآن نزل موافقاً للعربية في أصواتها وصرفها وتراكيبها ومعانيها، وقالوا إن النص القرآني يمثل قمة الفصاحة العربية يليها في المرتبة كلام العرب شعره ونثره."([1])

وهناك المئات من المواضع التي خالف فيها النص القرآني القواعد اللغوية التي وضعها العلماء، والعلماء يحاولون وضع تخريجات لها؛ لتتناسب مع النص القرآني، والإشكالية الكبرى لديهم تنبع من تحكيم القواعد البشرية على النص الإلهي المقدس، فحدث الخلط الكبير، فكان ينبغي الفصل بين كتاب الله وكلامه وبين استعمال البشر للغة وتصريفهم لها على وجه الاستخدام المعروف.

ورأينا في العصر الحديث من يُقسّم الكلام في اللغة العربية إلى: نثر وشعر وقرآن([2]). وقد كان يقصد بذلك أن لكلٍ علومه التي ينبغي أن تدرسه في معزل عن الفنون الأخرى، فالمعروف – مثلاً- أن للشعر علم قائم به وهو علم موسيقى الشعر الذي وضع أسسه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ليس عربي المنبع)، ويجوز للشاعر في الاستعمال اللغوي ما لا يجوز للناثر، وقد بسط هذه القضية المعلم الأول – قبل قرون بعيدة – أرسطو طاليس في كتابه الخطابة فليراجعه من شاء.([3])

وكان ينبغي ألا تؤخذ دعوة طه حسين مأخذ الهزل، بل مأخذ الجد بشكل جماعي تعمل الجامعت العربية على تقعيد القواعد الخاصة باللغة القرآنية في شبه عزلة عن اللغة الشعرية.

وأسوق بعض النماذج من المظاهر التي تستدعي القول بوضع علم لغة قرآني؛ لاختلاف النص القرآني عن المعايير الفصيحة التي وضعها العلماء.([4])

١- د. مجدي محمد حسين، النص القرآني ومعايير الفصاحة ، مؤسسة حورس الدولية ،٢٠١٢، صـ٥، ومتعمّد كثيرا في هذا المبحث على هذا الكتاب الذي يحل لظاهرة الخلاف بين النص القرآني من حيث الاستعمال اللغوي وبين اللغة النموذجية التي قررها العلماء عند وضع العربية (وأؤكد أن العلماء الذين وضعوا قواعد العربية (أعلمهم) من الفرس، وإنما وضعوا القواعد ليفهم الناس كلام العرب من الشعر والنثر لا ليفهموا القرآن، وغريب في حضارة كبيرة كالحضارة العربية الإسلامية أن من يضع لها القواعد التي تضبط اللسان من الفرس، وبعض هؤلاء العلماء لم يتحدث لسانه بالعربية حتى سن العشرين ، فأين كان علماء العرب؟ أكانت العرب مشغولة في الحروب والصراعات السياسية على حساب اللغة ثم التفاسير والتاريخ ، كن هذا وضعه الفرس، ولعل أعلمهم تمير بنظرة شعوبية للإسلام وللعرب ، فكاد لهم أكثر ما أفادهم)

٢- يعزى هذا القول إلى الدكتور طه حسين، عندما اصطدم بتلك الخلافات بين اللغة النموذجية والنص القرآني، وحديثاً اقترح بعض الأساتذة وضع نحو جديد أو فرع جديد للنحو يدعى النحو القرآني ، يختص بدراسة الاختلافات القرآنية عن اللغة النموذجية ،ولكني أرى أن هذه الجرية اجتهاد فردي ، قليلة الحظ من التوفيق والنجاح

٣- أرسطو طاليس الخطابة ، تلخيص وشرح أبي علي بن سينا ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٩، فليراجع، فهو كتاب لا غنى عنه للباحث في هذا المجال كما اهتم المؤلف بقضية اللحن في الارتجال واللحن في التحرير ، وأكد على أن اللحن في التحرير أفحش من الارتجال

٤- يزعم البعض أن سيبويه قد وضع القواعد وكذا أبو علي الفارسي، وغيرهما من العلماء الفرس لأحد أمرين: الأول أن يستطيع الفرس فهم اللغة العربية، فهي قواعد موضوعة للفرس لا للعرب، والآخر أن يسئهم على العرب فهم القرآن الكريم ،ومن ثم يبطل مظان إعجازه البيانية الراقية ، والواضح أن العلماء العرب لم يبذلوا جهودا كبيرة تسم بالقدرة على الخيال والإنفساح في المجال العقلي ، ووقفوا جامدين أمام نصوص محددة ، شابهت الوضع الفقهي الذي جابى السلطان حين يمسك بزمام الأمور عبر العصور السالفة

- الحروف المقطعة:

دارت العديد من الأبحاث حول الحروف المقطعة والغالب أنها مثّلت نوعاً من الغموض والإبهام، ولم يقف الكثيرون على حقيقتها لليوم، والمفسرون لهم فيها جهود كبيرة وأهمهم في رأيي الإمام محمد أبو زهرة في تفسير زهرة التفاسير (١)، وقد وردت الحروف المقطعة في القرآن في ٢٩ سورة واستخدمت ١٤ حرفاً من حروف الهجاء وجاءت على حرف (ص- ق- ن) وحرفين (طه- يس- حم) وثلاثة أحرف(ألم – ألر- طسم) وأربعة (المص- المر) وخمسة(كهيعص) وقيل إن تلك الأحرف علم مستور وهي سر الله، ونرفض هذا القول؛ لأن الله أنزل القرآن للإفهام لا للإبهام.

ويختص القرآن الكريم بوجود مظاهر خاصة عند النطق بتلك الحروف،" فهذه الحروف وإن كانت من الأبجدية المعهودة إلا أن لها سمتاً ونسقاً وسياقات خاصة لا تُستفاد من هيئتها ورمزيتها."(٢)

- وهناك استعمالات لحروف الجر في النص القرآني يغاير اللغة النموذجية، ومن ذلك قوله تعالى:" وَقَدْ أَحْسَنَ بِي "(يوسف:١٠٠) والمشهور تعدي الفعل(أحسن) بحرف الجر إلى، كما قال تعالى :" وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ "(القصص:٧٧)

- وهناك مواضع يدعي العلماء فيها وضع الحرف زائداً، ومن أشهر تلك المواضع قوله تعالى:" لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " (الشورى : ١١) والمعنى حسب وضع الجملة" ليس مثل مثله شيء" وهذه العبارة من أشكل الآيات في القرآن الكريم، ولها تخريجات كثيرة فيها افتعال كثير، لا تقتنع به اللغة النموذجية العربية. ما يشير إلى ضرورة الانعتاق من قواعد اللغة واستخدام العرب قبل البعثة المحمدية معياراً للفصاحة القرآنية.

- قد، إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت التأكيد والتحقيق، كما هو مشهور، وإذا دخلت على الفعل المضارع أفادت التقليل وعدم اليقين، ولكنها وردت في التراكيب القرآنية متلوة بالفعل المضارع فكأنها للشك – من حيث الاستعمال النموذجي – والسياق لا يمكن أن يحتمل هذا المعنى؛ لإسناد الفعل لله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى:" قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ "(البقرة:١٤٤) وقوله تعالى:" قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا "(النور:٦٣) وقوله تعالى في الآية التالية:" قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ "(النور:٦٤) وقيل إن قد دخلت على المضارع وأفادت التحقيق واليقين، باعتبار أن العبرة بما يجب أن يكون لا ما هو كائن بالفعل.(٣)

١- وهو تفسير حديث ظهر في الربع الأخير من القرن العشرين وطبعته دار الفكر العربي بالقاهرة

٢- د. مجدي حسين النص القرآني، ص١١

٣- وردت كلمة (قد) في النص القرآني أكثر من ١١١ مرة ، ودخلت على الفعل الماضي والمضارع ، وأكثر ما دخلت على الفعل الماضي، ولكنها خرجت عن السياق اللغوي عند إسناد الفعل لله تعالى ما أوجب نظرة تقعيدية معايرة للموجود والحالي.

وكذا نجد في استعمال القرآن الكريم لإن الشرطية مخالفاً اللغة النموذجية كقوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ "(البقرة:٢٧٨) وقوله تعالى:" لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ " (الفتح :٢٧) ففي الآية الأولى افتتحها بوصفهم مؤمنين ثم قال " إن كنتم مؤمنين"

- الفعل: استخدم القرآن بعض الأفعال في دلالات زمنية مختلفة، وأفادت التراكيب القرآنية معانٍ تخفى على الاستعمال الظاهري ومن ذلك قوله تعالى:" فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ " (البقرة: ٩١) " اجتمع في الآية زمنان يستفادان من التركيب، الأول: الحال أو الاستقبال في قوله (تقتلون) والثاني: المضي من قوله (من قبل)، قال الفراء: يقول القائل: إنما(تقتلون) للمستقبل فكيف قال(من قبل)؟ ونحن لا نجيز في الكلام أنا أضربك أمس."(١)

- عودة الضمير في القرآن الكريم تشكل خروجًا على مقررات اللغة ومقتضيات القواعد، وأكتفي هنا – للاختصار فقط - بسوق الآيات وإظهار ما فيها فحسب، يقول تعالى:" وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ"(البقرة :٤٥) فالضمير في "إنها" عائد على الصلاة فأين ضمير الصبر . وقوله تعالى:" وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ "(البقرة:١٢٠) فملة اليهود خلاف ملة النصارى ،وقوله تعالى:" وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ "(التوبة:٦٢) وقوله تعالى:" إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ "(القدر: ١)

واستعمال ما التي هي لغير العاقل بدلاً مِن مَنْ التي هي للعاقل كثير في القرآن من ذلك قوله تعالى:" فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ "(النساء:٣) قوله تعالى:" إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا "(آل عمران:٣٥) وكذا استعمل من مكان ما في النص القرآني كقوله تعالى:" وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ "(النور:٤٥)

- الوصف: في القرآن الكريم نجد بعض الأوصاف تُعطَى لبعض الأمور تعطيها مساقات مغايرة للمفهوم الطبيعي والعادي، ومن ذلك قوله تعالى:" أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا"(النساء: ٨٢) فكلمة كثيرا أفادت وصفاً لنوع الاختلاف لو كان من عند غير

١- د. مجدي حسين النص القرآني، ص٧٢ وقال بعض البصريين في ذلك معناه: فلم قتلتم أنبياء الله كما قال جل ثناؤه " وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ "(البقرة ١٠٢) أي ما تلت ولكن نحن في ذات الإشكالية مع آية أخرى في صدر سورة النحل حيث يقول تعالى:" أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ "(النحل ١) وغيرها كثير مثل قوله تعالى:" يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ"(هود ٩٨) وللمحشري تأويلات حسنة شريطة ألا تستخدم تلك التراكيب إلا مع النص القرآني فحسب ، أما حلاف القرآن فلا يمكن أن يكون لها ذات الدلالة (وبالطبع المحشري ليس عربياً بالأساس)

الله، فهل نفهم أن الاختلاف يكون قليلاً إن كان من عند الله تعالى.(١)

• موضوعات القرآن الكريم:

المحتوي القرآني لأول ما نزل من القرآن الكريم(٢):

- خلق الله للإنسان ولطفه به. (العلق – البلد – عبس – الأعلى – الرحمن – الضحى – الغاشية)
- الكل راجع إلى الله ليوفيه حسابه .(العلق (إن إلى ربك الرجعى) – الانشقاق – الطارق – الذاريات – الطور)
- استجابة الإنسان – شكر وعبادة .عبس(١٧) - المدثر(١٠) - العلق (٦،٧)
- استجابة الإنسان لله سبحانه – السماحة والكرم والتطهر.البلد(١١) الضحى (٦..) الهمزة(١- ٣) القلم (١٧ – ٣٣)

مهمة محمد. (المدثر – الأعلى)

* تحدث القرآن عن الوثنية العربية.

* تحدث عن بني إسرائيل ثم عن اليهود واليهودية. وكتبهم وذكرها بصفات متنوعة وربما متعارضة. وسنفسر ذلك.

* تحدث عن المسيح وأمه والنصارى وأهل الكتاب والإنجيل كما تحدث عن التوراة من قبل.

* تحدث عن الخلق والتعديل والتغيير في مسارات تلك الديانات وتشويهات أصحاب الهوى لها، وإخراج الكتب ومضامينها عن المسار الصحيح الذي أُنزلت عليه، وما استتبع ذلك ضرورة وجود نبوة بعيدة عن موطن تلك الكتب وتتخذ لغة أخرى مغايرة للغة التوراة والإنجيل ومن ذات الجذر اللغوي كما يقول علماء اللغات، وتتخذ تلك النبوة أتباعاً مغايرين في العادات والتقاليد وطرق الإيمان وأسبابه ودوافعه.

* لم يتحدث القرآن عن آسيا المانوية والزرادشتية أو الصين واليابان وغيرها من الدول إلا بوصفهم عبدة الكواكب والصابئة والمجوس، ولكنه لم يهتم بمناقشة كتبهم التي تتشابه في الكثير مع بعض النصوص القرآنية في بعض المنطلقات وربما يُعزى ذلك، إلى عدم وجود ممثلين عن هؤلاء في الجزيرة

١- خلص صاحب كتاب النص القرآني ومعايير الفصاحة إلى النتائج الآتية

-كان من الخطأ الجمع بين القرآن وقراءاته من جهة وكلام العرب شعره ونثره من جهة أخرى عند تقعيد اللغة؛ لأن هذا الأمر أدى إلى تباين في كثير من الأحيان بين الاستعمال القرآني والواقع اللغوي

-هناك الكثير من الاستعمالات القرآنية التي لا تتجاوز دفتي المصحف ولا تعرفها اللغة النموذجية وكأنها لغة خاصة بالقرآن ، ولم تستطع قرص نفسها على الاستعمال في اللغة النموذجية

-استعمل النص القرآني للغة يكون في كثير من الأحيان استعمالاً خاصاً لا يصلح في غيره من الكلام ،ويكون لاعتبارات أخرى مرعية لا تعرفها المصحفي ولا تلزم نفسها بها كموافقة الخط الذي كتب به المصحف أو مراعاة الفاصلة وما تقتضيه من تعديل للتركيب والتي شبهها القدماء بالقوافي ،أو ارتباطها بسياق المقام وسياق الحال من سبب النزول والموقف الذي قيلت فيه ، وغير ذلك من الاعتبارات التي لا تعتمد على اللغة وحدها ص١٣٧

٢- راجع في ذلك كتاب مورتجمري وات، السابق الذكر

أثناء التنزل القرآني إبان الدعوة المحمدية الإسلامية، على خلاف وجود النصارى سواء في الحبشة أو نجران ووجود اليهود بكثرة في الجزيرة وخاصة في يثرب وخيبر، ولعل نظرة خبيثة كهذه تؤكد أن الإسلام بهذا المنطق دعوة محلية ولا تتعدى المرئي لها، وأن دخول الناس فيه من باب التفضيل، وليس من باب الفرض الواجب على المسلمين، فلمَ كان قول القادة العرب على أبواب المدن المجاورة: إما الإسلام أو الجزية أو الحرب؟

* انحصر الجدل القرآني كله في نطاق الديانات الثلاث، ولهذا يمكننا القول بأنه إما دين محلي يتسع قليلاً خارج الجزيرة أو مُني بفهم ضيق وكانت السياسة وراء تراجعه.

الوحي والكتاب بوصفه الوحي:

* التأثيرات اليهودية والمسيحية في القرآن الكريم، نجد أن القرآن قد لفت الانتباه إلى مصر بني إسرائيل الفرعونية أكثر ما تحدث عن إسماعيل وهاجر في القرآن.

وبنو إسرائيل في الأساس لا يهتمون بنبوة إسماعيل، وقد لا يعترفون بأمه، والعديد من علماء الغرب يشكك في أن إبراهيم وابنه إسماعيل هما اللذان بنيا الكعبة في مكة، وقد تحدث القرآن صراحة عن ذلك قائلاً: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "(البقرة:١٢٧) والمقصود بالبيت هنا البيت الحرام الذي بمكة، ويقول القرآن مؤكداً على ذلك في موضع آخر من القرآن: " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ(١) لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران:٩٦-٩٧) غير أن الحديث عن الكعبة وبنائها لا يتطرق إلى خلافات سياسية أو تاريخ ديني يمسّ اليهود أو المسيحيين، ومن هنا فلا يعوِّل اليهود على تلك الروايات بقدر اهتمامهم بحديث القرآن عن فرعون وموسى وعيسى وأمه.

١- القرآن حينما يطلق لفظ الناس ، ففي الأعم والأغلب يقصد أهل مكة. والشاهد على صحة ذلك هنا، قوله تعالى:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (البقرة:١٢٦) فالناس هنا هم أهل قريش سكان مكة، ولا يتعدى الوصف غيرهم مما جعل البعض يؤكد أن دعوة الإسلام دعوة دينية محدودة ، فكما أرسل الله الأنبياء إلى بني إسرائيل أرسل الله محمدا إلى العرب ويؤكد ذلك الفهم والزعم قوله تعالى:" وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ" (الأنعام:٩٢(وقول الله تعالى إن أول بيت وضع للناس في مكة ، لا يستقيم إلا في الحديث عن أهل مكة، فالعالم لا يلتمس الكعبة حتى قبل الإسلام بوصفها بيتا للعبادة، فالأشهر منه عند الكثيرين بيت المقدس، وحتى غرب الأرض وشرقها لا تهتم بالكعبة.وفي هذا يطول الحديث.

يمكن لهم أن يؤكدوا أن محمداً قد تأثر بكتبهم في الحديث عن فرعون وعن عيسى والحواريين، ولا يمكنهم زعم ذلك في حديثه عن بناء الكعبة، وهي أهم بنيان ديني عند العرب قبل الإسلام وبعده.

* وجوه الإعجاز:

الأساس في القرآن أنه مُعجِزٌ عن المثيل، وهو وإن كان مجرد كلمات تحوي معانٍ وأفكاراً، ويمثّل حصيلة ثقافية وظاهرة لغوية فإنه يعتبر المعجزة التي بُعث بها محمد(ص)، وهو يثير كافة القضايا التي يبحثها العلماء شرقاً وغرباً، وبه أضاءت جزيرة العرب، بعد أن لم تكن في ميزان الحضارة البشرية شيئاً يذكره أحد(نكرة)(١)، والقرآن هو المتحدى به العرب على الإتيان بمثله قال تعالى: " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (يونس:٣٨) وقال أيضا: " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (هود:١٣)، "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (البقرة:٢٣)

ومن تلك الآيات نجد أن هناك تدرجاً في التحدي، ولم تأت العرب بمثله.

وقد توافر العلماء على وضع وجوه الإعجاز في أغلب التفاسير، وقد ناقش القرطبي وجوه الإعجاز والتحدي، وأحصى الإمام عشرة وجوه من الإعجاز أوجزها كما يأتي:"

١- النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وغيرهم، ليس من نظم الشعر في شيء.

٢- الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

٣- الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحالٍ من الأحوال.

٤- التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي.

٥- الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله .

٦- الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان في كل ما وعد الله به، وهي وتنقسم إلى: وعد مطلق، ووعد مقيد بشرط.

٧- الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يُطلع عليها إلا بالوحي.

٨- ما تضمنه القرآن من العلم.

٩- الحِكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

١٠- التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرًا وباطناً من غير اختلاف.

١- وقد ورد أن أبا عبيدة سمع من عمر بن الخطاب وقال له " كنا أذل أمة فأعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله تعالى"،وكذا قال مثاله جعفر بن أبي طالب في حضرة النجاشي وهذا مشهور

ونلاحظ أن تلك الوجوه تتضمن:
قسم بياني بلاغي لغوي.
قسم مضمون وغايات وأهداف. (ولأسباب منهجية سأكتفي بتلك الوجوه وإن كان هناك الأكثر)

وأقول بكلمات عصرية إن معجزة القرآن تضمنت الوسيلة والغاية، فالوسيلة هي الألفاظ والعبارات التي صيغت فيها الغايات والأهداف من نشر الدين وتحقيق الدعوة والوحدانية لله سبحانه وتعالى.

وقد تحدث العلماء عن الوجه البعيد من الإعجاز وهو صرف الله تعالى العرب عن إمكان الإتيان بمثله، فقد قال النظّام (إبراهيم بن يسار) بأن العرب كان في إمكانهم الإتيان بمثله غير أن الله تعالى صرفهم عن ذلك، وهذه مقولة هندية في الأساس لا نجدها إلا في العصر العباسي حيث اختلط العرب بأهل الثقافات والملل والنحل الأخرى اختلاطاً ثقافياً ومعرفياً، وقد فند تلك الدعوى الإمام محمد أبو زهرة فانظره هناك.([1])

غير أن هذا ليس آخر ما عندي في وجوه الإعجاز القرآني، فأقول: إن من بين أهم الوجوه أن يأتي عربي من أوساط القوم ويدعو قومه إلى شيء لم يسبقه أحد غيره إليه في الأجيال التي يتفاخرون بها ، ويمتلئ قلبه ثقة وإيماناً بأنه منتصر وبأن دعوته ستنتشر ويخبر بذلك مراراً، ويقف القرآن الكريم كلغة ومضمون شامخاً رغم تغير الحضارات وتعاقب الغِير، وتباين الظروف والمعطيات في كل عصر، ورغم انهيار المسلمين واستباحة ديارهم وبلادهم وإبادة العديد من عرقياتهم (حدث كثيراً عبر التاريخ سواء على يد التتر أو الأسبان أو الصرب أو غيرهم) فإن القرآن الكريم يقف كنص إلهياً مقدساً، ونشر اللغة العربية وأوقفها في مصاف اللغات العالمية، ولولا القرآن لاندثرت ولصار أهل الحجاز هملاً، كما كانوا لا يعلو لهم شأن ولا يُسمع لهم كلمة، وربما انقرضوا في الدنيا، وأفنى بعضهم بعضاً.([2])

وسنظل ندور في دائرة مفرغة ولن نستطيع – نحن المسلمين – أن ننشر القرآن ولغته ونعرِّف الناس بوجوه إعجازه طالما صرنا على ذات الدرب السائر عليه القدماء منذ نزول القرآن لليوم.

*** تفسيره:**

تقدم الحديث عن تفسير القرآن في المفتتح، والمؤكد أنه وضعت الكثير من الأحاديث تهيباً للقرآن وتعظيمًا لشأنه ورفعة مكانته.

١- محمد أحمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، صـ ٥٧- ٦٥ حيث ناقش القضية باستفاضة ولم يدع فيها مجالاً لغيره
٢- قد يفهم البعض من هذا القول أن القرآن اقتصر إعجازه على العرب فحسب وأنهم فقط المستهدفون منه عبر التاريخ، غير أن الحقيقة أنني سأجيب عن هذا كله في الفصل الخاص تحت عنوان " دين محلي أم فهم ضيق؟"

روي عن جندب قال رسول الله: " من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ" وهو حديث ضعيف، وزاد رزين:" ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر" .

التفسير بالرأي:

يحمل النهي عن التفسير بالرأي على أحد وجهين:([1])
أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه؛ فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه؛ ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. (أي أن الفهم تقيد بالرغبة، وهنا نجد أن قولهم: حُبُكَ الشيء يعمي ويصم، ينطبق على ذلك)
الوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير. فمن لم يُحكِم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية،كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي.

وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي إليه.
وبالطبع لا يقتصر الحديث عن التفسير في عبارات قليلة، فالتفسير وعلومه قد أثرت اللغة العربية والفقه الإسلامي، ومازال القرآن الكريم لما تتضح كل معالمه، ولم نستفد منه غاية الفائدة المرجوة، والظن الراجح عندي أن القرآن مناسب لكل الأعصر شريطة تعاظم الفهوم للتعاطي معه.

* ترتيب السور والآيات:

عندما أنظر في المصحف وأذاكره الأطفال الصغار أجدني مضطرًا للبدء في تعليم طفلي من نهاية المصحف الشريف؛ لأسباب تعليمية بحتة، لا علاقة لها بترتيب أو خلافه، وأجد من العلماء منْ يقول إن هذا يُعد تنكيساً، وهو مكروه، بل الأوجب قراءة القرآن بحسب الترتيب المصحفي الذي أعده الصحابة الكرام. (وقد نهى القرطبي عن ذلك)

وعندي بعض الملاحظات على ذلك، أسوقها كالآتي:
- الذي أجمع عليه علماء الأمة الإسلامية أن ترتيب الآيات داخل السور من وضع الرسول الكريم و"

١- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ، مجـ١، صـ٤٣-٤٤ بتصرف عن ابن أبي مليكة قال: سئل أبو بكر الصديق عن تفسير حرف من القرآن فقال " أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني وأين أذهب وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى؟"

قد كان نزول القرآن على غير الترتيب الذي نقرؤه الآن في السور الكريمة، بل كان ذلك الترتيب من بعد النزول بعمل النبي بوحي من الله تعالى، فكان النبي يقول ضعوا آية كذا في موضع كذا من سورة كذا، فتكون بجوارها متسقة متلاحقة المعنى مترابطة، متناسقة اللفظ. "[1]

هذا عن ترتيب الآيات أما ترتيب السور فأمره جد مختلف ومتباين كثيرا عن ذلك، فقد أورد القرطبي أن ترتيب السور داخل المصحف اختلف من صحابي إلى آخر، وقال:" قد اختلف السلف في ترتيب سور القرآن، فمنهم من كتب في مصحفه السور على تاريخ نزولها، وقدَّم المكي على المدني، ومنهم من جعل في أول مصحفه الحمد، ومنهم من جعل في أوله " اقرأ باسم ربك"، وهذا أول مصحف عليَّ، وأما مصحف ابن مسعود فإن أوله" ملك يوم الدين" ثم البقرة ثم النساء، على ترتيب مختلف، ومصحف أُبي أوله: الحمد لله ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة، ثم.. كذلك على اختلاف شديد. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة...

وذكر ابن وهب في جامعه قال: سمعت سليمان بن بلال يقول: سمعت ربيعة يُسأل: لِمَ قُدِّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قُدمتا وأُلف القرآن على علم ممن ألفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ننتهي إليه، ولا نسأل عنه ."[2]

- ويدور الكلام كله بعد ذلك على أن الاختلاف في ترتيب السور كان قبل العرضة الأخيرة التي عرض فيها الرسولُ الكريمَ القرآنَ على جبريل، وصحح النبي للصحابة ما كانوا فيه يختلفون.
- يذكر بعض أهل العلم أن علة تقديم المدني على المكي، هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها، وما تعرف من أفانين خطابها ومحاورتها، فلما كان فن من كلامهم مبنياً على تقديم المؤخر وتأخير المقدم خوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله الذي لو فقدوه من القرآن لقالوا: ما باله عَرِيَ من هذا الباب الموجود في كلامنا المستحلى من نظامنا!

وهذا الكلام فاسد وإن رواه القرطبي واستحسنه وحشد له الأسانيد، ووجه فساده أن التقديم والتأخير يكون في الآيات لا السور، وهو موجود بكثرة وهو قضية درسها العلماء الثقات، ونوقشت عدة أطروحات للماجستير والدكتوراه في هذا الشأن تحت عنوان: التقديم والتأخير في القرآن الكريم

١- محمد أبوزهرة : المعجزة الكبرى، صـ٢١ ولكني أشير إلى ترتيب الآي في نهاية سورة الملك الآية ٢٩/٣٠،أتوقف أمامهما مندهاً فكان حق الأخيرة أن تتقدم على سابقتها،ولتراجع هناك

٢- القرطبي الجامع لأحكام القرآن جـ١، صـ ٦٩

سواء بين النحويين أو بين البلاغيين أو بينهما معاً.

وهو لون بلاغي في المقام الأول، وإن رأى النحويون فيه بعض الآراء، على أنه في النهاية – عندي- لا يخرج عن الآيات داخل السورة، فالآية فيها تقديم وتأخير سواء لأغراض بلاغية بحتة أو لأغراض بلاغية نحوية تدرس في مظانها وما فتئ العلماء يدرسون لليوم هذه الأوجه، أما الحديث عن التقديم والتأخير للسور الطوال ليواكب الفن البلاغي الذي عرفته العرب فهذه حجة فاسدة؛ فالعرب تعرف التقديم والتأخير داخل القول الواحد، الكلام الذي يجئ في قصيدة شعرية، أو قول لأحد الخطباء، أما الكتب فلا تعرفها العرب، ومن هنا فإنهم لا يعرفون تقديم الموضوعات داخل الكتاب الواحد، وقد قال الله تعالى لنبيه: " وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ"(العنكبوت:٤٨) والمعروف (بنصوص القرآن) أن العرب لا يعرفون الكتب كما هو مصطلح عليها اليوم، فلفظة كتاب قد تدل على الرسالة التي ينقلها شخص، وتحوي بعض المطالب أو الأوامر كأن نقول: كتاب أمير المؤمنين إلى عامله في مصر يطلب منه فعل كذا... هكذا. ويقول الرجل: كتبت كتاباً لابني في البصرة أعرف أخباره ..

ويدخل هذا التغير في الدلالة في علم الدلالة من باب تغير الدلالة، وهو علم معروف ومطروق، وقد وردت لفظة كتاب في القرآن الكريم ٢٣٢ مرة، مما يشي بالتأكيد على الكتاب وخصوصيته. ولا يدخل فيه التقديم والتأخير البلاغي والنحوي.

- المكي: " ما نزل قبل الهجرة يسمى مكياً وما نزل بعد الهجرة يسمى مدنياً وإن نزل في مكة، فالتقييم زماني، وليس بمكاني، ليست العبرة بمكان النزول وإنما العبرة فيه بزمانه"(١)

- وقد فصّل العلماء الفروق الجوهرية بين المكي والمدني في: اللغة والعبارات وأسلوب الخطاب من يأيها الناس في الغالب إلى يأيها الذين آمنوا، إلى الموضوعات، إلى التحريم والحضّ على القتال وأشياء كثيرة تُراجع في كتب التفسير وعلوم القرآن .

والمكي والمدني من أهم العلوم القرآنية، فالمكي يخاطب به وثنيي قريش وحدهم – في الغالب- أما المدني فالخطاب موجه لأهل الكتاب والوثنيين وبقية الناس.

١- محمد أبو زهرة المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، صـ١٩ صـ١٣٤ "وقد وجد الباحث الألماني تيودور نولدكه في كتابه تاريخ القرآن (نشر عام ١٨٦٠) أننا إذا درسنا الآيات الطوال وقارناها بالروايات التقليدية عن أسباب النزول ،وجدنا أن السور المجمع على نزولها أولاً تحوي آيات قصاراً ،والسور المجمع على نزولها أخرا تحوي آيات طوالاً غالباً ، وعلى هذا فإن نولدكه قد فرض فرضاً علمياً مؤداه أننا نستطيع أن نحدد ما إذا كان النص القرآني الذي بين أيدينا نزل في المرحلة الأولى أو المرحلة المتأخرة ، بناء على طول الآيات أو قصرها وبناء على هذا المعيار رتّب نولدكه سور القرآن إلى أربع فترات زمنية ، ثلاث مراحل مكية ومرحلة مدنية

وقد قبل ريتشارد بيل المعيار الذي وضعه نولدكه كمعيار مضبوط (معيار طول الآيات وقصرها) وإن كان من رأيه أن هذا المعيار في حاجة إلى بعض التعديل ليتناسب مع آيات بعينها بالنظر لمحتواها ويبدو أن هذا العمل كان صحيحاً خاصة فيما يتعلق بالحقبة المدنية انظر مونتجمري وات صـ١٣٦

ولهذا فليس سهلاً أن نقبل في القرن الحادي والعشرين الزعم بأن الترتيب في المصحف لاعتماد الناحية البلاغية عند العرب بالتقديم والتأخير، بل أقول:

- إن ترتيب البقرة تليها آل عمران ثم النساء والمائدة... الخ، ترتيب سياسي في المقام الأول، خضع لاعتبارات وجود الدولة الإسلامية في المدينة، وقد دانت لها أغلب العرب، فلم يفرغ زيد بن ثابت من الجمع حتى كان قد تمّ القضاء على حركة الردة ومانعي الزكاة، وفرغت الخلافة في المدينة للإغارة على أطراف الجزيرة في الشام والعراق، وغيرها من المواطن، فلم تعد هناك في مكة قوة مناوئة للإسلام، وتم إبادة بعض القبائل اليهودية إبادة تامة بعد قريظة، وتم جلاؤهم من الجزيرة، ولم يعد هناك قبائل عربية تأبى الزكاة للخليفة ويتأولون في ذلك، ولا عاد هناك أنبياء يشاطرون قريشًا فخرهم بالنبوة وقد صفت الجزيرة من كل القوى القديمة والجديدة للدعوة الإسلامية، وبحث الخليفة عن موارد اقتصادية للناس، فهمَّ بفتح البلاد وشغل المسلمين في الحروب لئلا يقاتلون بعضهم بعضاً. (١)

عندما نفتح المصحف ونطالع في سورة البقرة نجد أنفسنا أمام ثلاث طوائف للبشر في هذا الوقت:

- المسلمون. (٢)
- الكافرون. (٣)
- المنافقون. (٤)

وهذا ترتيب سياسي – لا ريب فيه- وهو ترتيب يوحي بوجود دولة داخل الديانة أو دولة قامت على الديانة، فأول وثيقة في المدينة تفيد أن المسلمين أمة على غيرهم، وهذا لم يكن معترفاً به في مكة، فالمسلمون في مكة كانوا قلة مضطهدة تبحث عن الخلاص من نير العدوان عليها وعلى نبيها.

ثم إن الآيات في البقرة كثيرة وطويلة، والبقرة سورة تشريع وقصص سريع، وموضوعاتها كثيرة، وآل عمران تتحدث عن مواطن حربية بعينها، ثم النساء وهي كذلك تشريعية وتسمى سورة الأحكام وهكذا.

١- وقع ذلك بالفعل ، ففي كل فترة يفتر فيها الجهاد والقتال الخارجي فإنه يستعر داخلياً ، وقد توقف الجهاد في أواخر عصر عثمان وطوال عصر علي وبداية معاوية بسبب الحروب الداخلية ،ولم أعثر على دراسة تفيد أكان توقف الجهاد الخارجي سبباً في الحروب الداخلية أم كانت الحروب الداخلية سبباً في توقف الجهاد، والغالب أنه الأخير بسبب النزاعات الكبيرة التي نشبت طمعاً في السلطة وخروج فرق كبيرة (الشيعة والخوارج) تبنى نظريات دينية تتصدر لمذهبها القائم أصلاً على تولية من تراه صالحاً، ومن ها فإن أبا بكر أصلح الأمة في مهدها وتبعه عمر بالحروب الخارجية، والمعلوم كما هو مشهور أن الاقتصاد العربي كان قائما قبل الإسلام على أمرين لا ثالث لهما: التجارة ،وشن الغارة ولما كانت العرب قليلة فكانت غاراتها على بعضها البعض كما ذكر جعفر بن أبي طالب عند النجاشي حاكم الحبشة (كنا قوما يأكل القوي فينا الضعيف الخ)

٢- ورد لفظ مسلم- مسلمين – مسلمون في المصحف ٤١ مرة، والمؤمن وردت في المصحف ٢٠٠ مرة باختلاف تصريفاتها

٣- وردت الكافر باختلاف تصريفاتها في المصحف ١٣٢ مرة ، والمشرك ٤٣ مرة ، وورد لفظ مجرم ٥٢ مرة ، وقيل إن المجرم عكس المسلم، والمؤمن عكس المشرك وخلاف ذلك، فليراجع فيه د. محمد شحرور على موقعه عبر شبكة المعلومات الدولية (حيث مؤلفاته ولقاءاته التليفزيونية)

٤- ورد لفظ سائق باختلاف التصريفات ٢٥ مرة ، وأشير إليهم بغير الألفاظ في عشرات المواضع الأخرى

فالترتيب لا يمكن أن يكون باعتبارات التوقيف من النبي، بل هو لاعتبارات سياسية بحتة، ورأينا أن اللجنة لم تضم أحدا من آل بيت النبوة وضمت شباباً أغراباً عن الدعوة والحجة أن يكونوا محايدين، فكأنهم حتى هذا الحين كانوا يتعاملون مع النص القرآني كما يتعاملون مع الخلافة باعتبارها محل نزاع وصراع.

وعلى هذا جاء الترتيب على النحو الأتي: " السبع الطوال أولها البقرة وآخرها براءة، قاله جماعة، والمئون: ما وليها، وسميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها. والمثاني: ما ولي المئين، وقال الفراء: هي السور التي آياتها أقل من مائة، وقال بعض العلماء: هي السور التي ثنيت فيها القصص، وقد تطلق على القرآن كله وعلى الفاتحة. والمفصل: ما ولي المثاني من قصار السور، يُسمي بذلك لكثرة الفصول بين السور بالبسملة، وقيل لقة المنسوخ منه، واختلف في أوله على اثني عشر قولاً وآخره سورة الناس بلا نزاع."(١)

والترتيب خضع لاعتبارات المجتمع المدني لا المكي، ونجد أن في نزول القرآن منجمًا على حسب الحوادث أقوالاً كثيرة تنصب كلها في اتجاه واحد فقط، وهو التبرير لا أكثر.

ولا يمكننا الاعتماد كثيراً على المنهج التبريري، وجهد العلماء في هذا الصدد وافٍ وكبير ومتصل الخلف عن السلف، ولكن أيمكننا القول باستخدام الخيال فنذكر أننا لا يمكننا ترتيب الآيات التي وردت في شأن بني إسرائيل وأهل الكتاب واليهود والنصارى على حسب ترتيب النزول دفعة واحدة، لقد تدرج الاستخدام القرآني في الإخبار عنهم تدرجاً سياسياً أكثر منه دينياً، ففي البدء يحكي عن بني إسرائيل باعتبار أن الله فضَّلهم على العالمين ويحتل الحديث عنهم مع فرعون مواطن كثيرة للغاية، ثم الحديث عن المُحرِّفين فيهم، والرد على شبهاتهم وفضح ما كان منهم مع أنبيائهم، ثم استخدام ألفاظ حادة وعنيفة في تصوير مواقفهم التي يتخذها أهل الكتاب واليهود والنصارى المعاصرين للرسول في المدينة، حتى نزلت سورة الحشر والأحزاب وتتحدثان عن مواقف حربية بين المسلمين وبينهم.

فلا نرى وجاهة أن يكر القرآن مرة أخرى ليحكي عن أخبارهم مع الفراعنة المصريين وقصص بطولات موسى وهارون وجماعتهم، بعد نشوب الخلافات الشديدة مع الرسول في المدينة، بل يفرغ لفضح أفعالهم ويحكي عن نقائصهم وتعريتهم، وكل هذا يخدم قضية السيطرة الإسلامية على

١- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، ج١، صـ ٢٢٠

الديانات السماوية السابقة([1]). وهذا مبسوط في كتب التفاسير ودس اليهود إسرائيليات متنوعة ومتعددة تهدف إلى ربط الديني بالسياسي فنجحوا حينًا وأخفقوا كثيرا.

(القرآن تحدث في المكي عن المشهور عن اليهود، ولا مجال للنقاش فيه، سواء بالدحض أو توجيه مبررات له (السبت – الأعراف) أما الحديث عن آثامهم وأخطائهم المتمثلة خاصة في قتل الأنبياء، وتحريفهم للكتاب المنزّل فهذا كله لم يتحدث عنه إلا في المدينة عقيب ظهور الصراعات السياسية الدينية المشار إليها سلفًا. (البقرة)

الخلاصة:

- إن مصدر القرآن الكريم هو الله تعالى أوحاه إلى محمد بن عبد الله بواسطة الملاك جبريل، ولا خلاف على هذا مطلقاً، وتؤكده الشواهد الإيمانية والتجريبية وأدوات البحث العلمي المتنوعة المناهج المختلفة الغايات والوسائل، في القديم والحديث.
- لقد حل القرآن الكريم مشاكل اجتماعية وأخلاقية وعقلية، لكن ليس دفعة واحدة وإنما على مراحل وبتدرج غير محسوس.
- لم يكن الوحي باللغة العربية فحسب، لكنه أيضًا كان في كثير من جوانبه عربياً في تكوينه، رغم أنه نص لا يوجد نص في الأدب العربي يشبهه مطلقاً، وفوق كل هذا، فقد صيغ الوحي في مصطلحات تعبر عن المفاهيم والصيغ الفكرية للعرب المعاصرين ونظرة أهل مكة.فمن غير العربي يختار الجمل دون غيره من مخلوقات الله للدلالة على عظمة الله سبحانه؟([2]) والصفات الأخرى التي يشير بها القرآن لقدرة الله سبحانه هي – بلا شك – متناسبة مع العرب خاصة. وأفعال الكرم التي يحثُّ القرآن الكريم عليها تتمشى مع المثل البدوية القديمة.
- وقد جاء ترتيب الآيات بتوقيف من الله وترتيب السور بعمل بشري تدخلت فيه الرغبات السياسية.
- اللغة القرآنية غير معيارية وتخالف اللغة المعيارية النموذجية كثيرا؛ بسبب أن وضع القواعد في الأساس لم يكن لفهم القرآن وإنما لفهم لغة العرب قبل القرآن .

١- يتجلى ذلك جلياً في مطالبة القرآن لأهل الكتاب بالإيمان بما جاء به محمد ويسوق بشارة عيسى في هذا الصدد ، ويؤكد أن علامة الرسول الخاتم موجودة في التوراة ولكنهم يحفونها ويها استدل سلمان الفارسي على صدق النبي في دعوته ، ومما جاء في القرآن " (آل عمران ٦٤/ ٦٥، ٧٠/٧١، ٩٨/١١٠، ١٩٩/١١٠، والنساء ١٧١، والمائدة ١٥/١٩/٥٩/٦٥، ٦٨/٧٧) وهي سور كما ترى مدنية فقط وفضح القرآن كتمانهم الحق قائلاً " يا أهل الكتاب لم تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون "(آل عمران ٧١) ويقصد بالحق هنا الرسول وانظر(آل عمران ١٨٧)

٢- يقول تعالى " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت"(الغاشية ١٧) وكذلك المثل المعروف في سورة الأعراف ٤٠، وقد أكثر النص القرآني من ذكر الأنهار بشكل ملحوظ لقلتها في البيئة العربية، ووعد بوجودها بغزارة في الجنة الأخروية، انظر(البقرة ٢٥/٧٤/٢٦٦، آل عمران ١٥/١٣٦/١٩٥/١٩٨، النساء ١٣/٥٧/١٢٢، المائدة ١٢/٨٥/١١٩، الأنعام ٦، الأعراف ٤٣، التوبة ٧٢/٨٩/١٠٠، يونس ٩، الرعد ٣/٣٥، إبراهيم ٢٣/٣٢، النحل ١٥/٣١، الإسراء ٩١، الكهف ٣١، طه ٧٦، الحج ١٤/٢٣، الفرقان ١٠، النمل ٦٢، العنكبوت ٥٨، الزمر ٢٠، الزخرف ٥١، محمد ١٢/١٥، الفتح ٥/١٧، الحديد ١٢، المجادلة ٢٢، الصف ١٢، التغابن ٩، الطلاق ١١،التحريم ٨، نوح ١٢، البروج ١١، البينة ٨) وأغلب الآيات تتحدث عن الجنة التي تسير لا في الأنهار بل تشير إلى أن الجنة تسير من تحتها الأنهار ،كذلك ذكرت الحمر في الجنة انظر(محمد ١٥) كل هذا يعني أن القرآن يخاطب العرب بما يعرفون أو يتشوقون إليه ، وهذا السرد في عموم سور القرآن ولا يحص حقبة دون غيرها وكان الرسول(ص) يعد من يؤمن به في الحقبة المكية بشيء واحد فقط، وهو الجنة وقد جاء ذكرها أكثر ٤٩ مرات بمعنى النعيم في الآخرة

وجوه إعجاز القرآن كثيرة، وبلغت عند بعضهم عشرة وجوه وقيل الصرفة وأكدنا أنها لصيقة بالهند لا خلاف.

- التفسير القرآني أغنى اللغة وأحيا موات بعض المفردات واستحدث مفردات جديدة، وغيِّر دلالة بعض المفردات، وأكد على تجدد النص وحيويته وإن كانت أغلب التفاسير تستقي مادتها من بعضها البعض كما أسلفنا من كلام الإمام محمد الطاهر بن عاشور.

- يبقى المكي والمدني من القرآن الكريم محل خلافات كثيرة، وقد اختلفت بعض الفرق الإسلامية في نظرتها للمصاحف على وجوه متعددة، منها عدد الآيات داخل القرآن وترتيب السور وإنكار بعض السور (الفلق – الناس – المسد وغيرها)

- يؤرخ القرآن بشكل غير دقيق(غير مفصل) للسيرة النبوية ولكنه يؤرخ بشكل أكثر دقة للصراعات السياسية بين المؤمنين في المدينة وأهل الكتاب الذين وصفهم بالكفار في الكثير من المواضع، وبرر قتالهم وحربهم والإجهاز عليهم .

- ناقش القرآن في العديد من الموضوعات أمورًا متعددة، وتطرق للحديث عن الماضين والمعاصرين وما يُستجد من أحداث ووقائع على المدى القريب والمتوسط والبعيد.

- اهتم القرآن بمناقشة موضوع البعث والحساب في الآخرة .